

رسالة في الصباغة والوجد جمال الغيطان



دار الشروق

رسالة في الصَّيَابَةِ وَالْوَجْدِ

الطبعة الأولى

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

القاهرة ١٦ شارع جواد حس - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

برقيا : شروق - نلكس 93091 SHOROK UN

بيروت ص ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

برقيا دالشروق - نلكس SHOROK 20175 LE

رسالة في الطباعة والخط جمال الغيطان



تأليف: حامد النوني

دار الشروق

الغلاف للفنان حلمى التونى

أما بعد ،

اعلم يا أخى الحميم ، أيدك البارئ الكريم بمدد من عنده ، أننى ما أقدمت على البوح لك أنت إلا بعد انقضاء مدى ، وما شرعت إلا بعد تعاقب أحوال شتى صعب على كتمانها ، اقترن فيها قرينى يبعدى ، واتصالى بانفصالى ، وخُلفُ أمرى بتوقيفه ، وتبادلت جهاتى المواقع ، حتى قوى على الشك أن ماجرى ، جرى ، خاصة مع تزايد الحضور بغير كينونة ملموسة ، وتكرار الظهور بغير معاينة محسوسة ، بعد انزواء جل العلاقة فى مجرد عقب خفى مستور بالحجب ، فلو أفضيت بما عندى بعد اكتمال الأوبة ، واستقرار العودة ، لو لحت إلى ماتوالى على ، ماصدقنى الأقربون ، حتى وقع عندى شتات بين اقبالى على من أصل أسبابى بهم ، لأبوح وأُسفر ، وتوقى إلى النأى والصمت وطى صحفى ، هذا ما غلب على ، خاصة مع بعد الشقة ، وانتفاء المخط ، وشحط الرؤية ، وانعدام المجاورة على رسائل . وزوال معالم الصورة الوحيدة عندى ، ووهن دقات الساعة الخرفية التى أودعتها بين يدي . والأصعب الأدهى ،

انتفاء الامكانية ، أحيانا تهدئني الرؤى ، غير أنها تتبدد ، فلا يتبقى إلا
 قفر المفازة ، وغول الطريق ، فأثنى ململما فؤادى طاويا دخائلى ،
 خشية أن يتبدد ما تبقى ، وعندما بقيت مدة مهدهدا ، منهكا ،
 مدمما بالوجد ، متخففا من شغاف الوهم ، لقيت الحمل ثقيلا وان
 لم ير ، والطوق محكما وان لم يلتف ، لذا أقدمت على التدوين إليك
 مع أنك قصى ، بعيد عني ، لكن يشفع لى عمر انقضى قُرب بيننا ،
 جعلك كَأَنى ، حتى لو عسرت المودة ، وانفرط العقد ، وتباعد
 الشمل ، وندرت اللقيا ، بقيت أنت كالجهة التى لا تدرك بالحواس
 وإنما يتوجه المرء إليها ، هكذا وليت بهمى صوبك ، لعل باسترجاع
 ما تبدد ، وروايتى لما يخيّل إلىّ أنه جرى ، أقف على توكيد يطمئنى ،
 يرسخ الحجة عندى ، فاحتملنى ياأخى وإن أطلت ، ولا تذرني إن
 أثقلت. ، ولا تنصرف إن فصلت ، وبحق العشرة القديمة ، تلمس لى
 العذر فى شدة تهيامى

ديباجة الطفولة

ديباجة الظهور

... أعلم يا أخى أولاً سبب مجيئى إلى ديارها ، ونزولى بلادها ، أقول - أذكرك الله من مبتغاك ، وحقق لك مطلوبك - أننى ماجئت إلا لفترة محدودة بأيام المؤتمر ، إذ دعانى القوم للمشاركة والمداولة والمناظرة فى أفضل السبل للحفاظ على المباني العتيقة ، وترميم ماتصدع منها ، وما يهدده البلى ، وهذا لب انشغالى منذ ربع قرن وعدة من سنوات آخر ، ولى فى هذا المضمار قول وصوله وتجربة ، ألقىت بحى ، أبديت وجادلت نفرا قدموا من بلاد شتى ، جئت برفقة واحد ممن علمونى المعمار ، وأضاءوا لى أسرار البناء ، أحالوه إلى التقاعد فى موطننا ، غير أنه لم يركن ، ولم ينه الخطه ، تراه فكأنه سيبدأ تحصيل المعرفة لأول مرة مبدىا حمية وحامسا أوليا ولطف تدبير ، إذن ، جئت موطنها ضيفاً ، غريباً ، محدود الإقامة ، مدق مبينة ، مثبتة على وثائق سفرى ، أما توقيت إقلاعى إلى منازل أهلى فمقدر سلفا ، أنى منقلب حيثما جئت ، هذا إدراك مدبب فى وعي ، وبرغم وقوفى على موقوتية زمنى بالقرب منها ، إلا أننى عند ظهورها انسقت غير عالى ، كاشطاً الصداً عن مغاليق طال اقفاها.

ستسأل ، متى بدأت الرؤية ؟ متى تحقق نظري منها وتمكن ؟
والله يا أخى مامن إجابة دقيقة ، مامن تحديد ، لو قلت لك أنها
قديمة عندي ، سارية داخلى منذ قدر لا أعرف تعيينه ، فلا
تكذبني ، وإن أمرها بدأ معي قبل مجيئي موطنها هذا فلا تنح
كلماي ، وإن قلت إنني ما قطعت زمني المنقضى إلا ماضيا تجاهها ،
وعند لحظة معينة تلاقينا فتفجر الشرر ، وانتثرت الشهب ، وامترج
المبتدأ بالخبر ، فلا تتكى على . وإن قلت لك إن هذا الكون
بمجمله مكان لأراها فيه فلا ترمني بالشطط ! .

المقطوع به في عالم الممكنات أنها لم تفارق موطنها هذا الذي
أجيئه أول مرة ، أين هذا الماضي المولى كله ؟ لا أدري ، أيقيني
أيضا أن عيني وقعتا عليها في الفندق الكبير ، حيث نزلنا ، واجتمعنا
لأبد أنها راحت وجاءت . تمهلت أو مرقت . غير أنني بقيت
غافلا ، فلم تكتمل كينونتي بعد ، ربما لأن الجمع كثير ، والذهن
مشغول بأمور شتى ، لكنني أنثني وأقول ، إن هذا غير دقيق ،
فكددي لم يكف ، ولم يخفت أبدا . اعلم يا أخى إن الظهور الذي
أعنيه ، له حين مقدر. جريت هذا وعرفته ، حدث منذ عشرين سنة
مضت أثناء تدريبي بمركز علمي ، أن اعتدت المرور بشابة تقعد إلى
مكتبها ، أبادلها التحية وأمضي ، إلى أن لاحت لي بعد طول
استتار ، بدت فجأة ، توهج لحظها وألق عينيها ، وشوارد مفلة من
داخلها المضيء ، فانتبهت ، وبدأت سعي ، متعجبا ، كيف غفلت
عنها ؟! كيف ؟! وفي ظرف آخر ، جاءتني بنية هيفاء ، رجة ، ولحظة

دخولها الحجرة نفذت مباشرة صوي ، وصار بيني وبينها شأن ، ثم انقضى الوقت ، فلا تبدأ صلة إلا ونهايتها في مفتحتها ، وهذا أمر له تفصيل ، لعل مورد في ما بعد . اعلم أنه مامن بدابة تشبه الأخرى ، منها ما يحاكي ظهور الطل ، ومنها ما يشبه تدفق السيل المباغت . أما هذه البنية فلاحت لي شيئا فشيئا ، قبل ظهورها في هذا الصباح المبكر .

صعب على التحديد ، مع أن يقينا يداخلى الآن وقد انحلت المدة وغابت الحضرة ، إنني لم أكف عن مشاهدتها طوال وقتي ، أجوس خلال ذاكرتي متلمسا خيالات واقع أمسكته بين يدي ثم انطوى ، ولى ، وخلف عندى البين والوجد ، بعد انتهاء المؤتمر ، سافرنا في طائرة معا مع بدء الرحلة إلى آسيا الوسطى حيث قصدنا معاينة ماشيده الأقدمون ، - ضمنا هذا الفندق في الليلة الأولى وإن تباعدنا جزنا العتبات ، ولجنا القاعات ، ركبت العربات التي أقلتنا من المطار إلى مأوانا ، جلست بجوار صاحبي ، ملصقا وجهي بزجاج النافذة ، متلمسا معالم المدينة التي لم أتصور أنني بالغها يوما ، يمكنني تحديد اليوم ، ثلاثاء ، يوم من أيام هذا الكون ، عند الفجر صحت مبكرا ، عندى تأهب غامض ، وشعاع خفي من وهج ، شأن المقدم على رؤية ما لم يخطر على قلبه أو باله قط . قت ويدايات الضوء الآسيوي تنفذ عبر الواجهة الزجاجية ، أزحت الستار ، تطلعت إلى الملامح التي لم أتبينها عند وصولي ليلا ، جلست ببصرى عبر الحديقة لم يهن الشتاء من خضرة حشائشها وأشجارها ، أما رد

فعلى عند رؤية شجر التوليب الباسق ، الملتف ، الململم ، فكان تنفسا عميقا ، هذا شجر لم أطلعه إلا فى منمنمات المبدعين الآفلين من أبناء الناحية عرفت العديد منها ، ودرست ماتضمنته ، وأطلت النظر إلى توقيع خجل ، متواضع ، لعظيم ممن تنفسوا هواء تلك البقاع ، اسمه « بهزاد » ، إذن .. هذا شجر توليب ، تبدأ الحديقة بعد انتهاء الساحة المبلطة برخام وردى ، منبسطة تحت الفراغ الشفقى ، ومن هذا الحد بدت ، فى الصباح الآسوى تجول ، تسعى ، لم يكن إلا هى ، تمضى إلى حد الحديقة الأيسر ، تنشئ حتى الحد الأيمن ، أنثى ، فارهة ، باسقة ، لها طلع ، تفسح خطاها ما بين شجرتى توليب بعينها ، لم أدر ، هل قاما منذ أزل قديم ، أم نبثا مع مجيئها ؟ ترتدى معطفا رماديا طويلا ، سافرة الشعر ، لا تحجبه بغطاء الفرو الثقيل ، مناخ تلك النواحي مختلف عن العاصمة التى قدمنا منها ، اعلم يا أخى أننى بدأت معراجى ببصرى صوبها ، وبمجرد بدء الرؤية أدركت أن قدرى يكمن فى هذا الحضور الإنسانى ، لم أدق ملاحظتها ، فالبصر كليل ، والمسافة غير مساعدة ، تردد عندى وجودها ، وصلنى تأثيرها فى هذا العالم ، انبثاق حركتها ما بين الشجرتين الفارھتين ، لماذا نزلت مبكرة ، أتلك رياضتها اليومية ؟ أهذه حركتها المعتادة فى مثل هذا التوقيت ؟ هل رصدت قلقا فى إيقاع خطواتها ؟ ربما ، ساحت داخلى بهجة لم أعهدا منذ زمن ، وتفجر عندى بشر كالزمن الأول ، ولعلك تذكر رسالتى التى ضمنيتها أسباب ضيق واكتئابى . وبدء اندحارى

بعد أن قمت من مرضي ، إرجع إلى مادونته إليك ، واعد قراءة مسطرته لك ، لتدرك لب مقالى ، وأى حد كانت عليه أحوالى ؟ .
 خطرلى أن أفارق غرفتي ، أن أهرع فألقاها ، أن أقف أمامها ، وإن لم انطق أواجهها بالصمت والسكينة ، لعلها تدرك عني . لكن ..
 ما أسرع الشروع وأبطأ التنفيذ ، حاد بصرى لحظة ، وعندما عاودت النظر رأيت الاطار وغاب عني المضمون ، فتحت النافذة ، هواء بارد قاسٍ ، إذن فالشتاء هنا شديد . مددت البصر ، لم أرها ، عدت إلى وحدتي ، مغمورا بالرؤية ، بالنفاذ ، الآن يا أخى وأنا أتم تدويني هذا أكاد أثق من رؤيتي لها قبل ظهورها ، قبل انبثاقها بين شجرتي التوليب ، لكن أين ؟ هذا مالا أقدر على تحذيده ، متى ؟ ذلك مالميس عندي منه يقين . في مدخل الفندق لم أرها ، أما المطعم فكان خاليا منها ، كيف أيقنت أنها تنتمي إلى جماعتنا مع أني لم أرها إلا عن بعد ؟ لا أدري .. طوال افطاري تعلق نظري بالباب ، لم أرها في ثباتي ، لكننا عندما اتجهنا إلى الحركة لمحتها ، تتأهب لصعود العربة التي ستقلنا إلى الجولة ، من مقعدي سددت البصر ، قعدت بجوار معماري من الهند ، عندما استقرت حلت عندي سكينه . أمكنني الرحيل بنظري هنا وهناك ، مطمئنا إلى وجودها قربي ، أمر بشعرها الطويل نافر الخصل ، أتابع تدفق الطرقات ، ما أراه أطلاله أول مرة . والأرجح أن عيني لن تقعا عليه أبدا ، أدقق واجهات المباني المشيدة كلها في أوقات متقاربة بعد وقوع الزلزلة المهولة منذ

حوالى عشرين عاما ، خطوط صاعدة ، أقواس توتر الطوابق العليا والمداخل ، الأصول النائية عربية ، تتقاطع الشوارع الفسيحة الرمادية وتستدير الميادين ممتدة صوب الفراغ ، غير أن ثمة مسافة بقيت تفصلنى عن طشقند هذه ، كنت أبحث عن شيء لم أجده ، وارتقب أمرا لا ألقاه ، أما ما شغلنى فالرنو إليها خلصة ، والشروع فى الاقتراب كيف ؟ .

ترجلنا فى الساحة الرئيسية ، هواء صارم ، قادم من أقاصى بعيدة ، خطوات تجاهها ، تمكنت من جانب وجهها الأيمن ، أيقنت أن أمرا قديما بدأ ينفذ ، فى المعرض أبطأت الخطى ، وأفسحتها ، اقتربت ، نأيت . هى فى حركة وأنا فى حركة ، كان دنوى منها يتم خلال ديمومة ، اعلم يا أخى أنار الله برهانك ، أن الأقدمين قالوا إنه لا تنفصل حركة عن حركة إلا بسكون بينهما ، وهذا يعرفه أهل الموسيقى خاصة ، وندركه نحن أرباب المعمار ، هم يتقنون تأليف النغم ، والنغم لا يكون إلا بالأصوات ، وتلك تحدث بالتعاقب ، بالتوالى ، بالحركات التى لا ينفصل بعضها عن بعض إلا بسكونات تكون بينها . بين زمان كل نقرتين زمان سكون ، هكذا قالوا ، وأقول أنا ، ذلك شأن المعمار ، فالبناء لا يتم إلا فى فراغ ، والقيام فى الفراغ حركة ، يبدأ من ثبات الأرض البادى ثم تتخلله الفواصل وما تلك إلا وقفات ، عند طوافى حولها كنت مرفرفا ، حائما ، لكن لى أويقات سكونى ، أولى فيها البصر بعيدا ، ثم أنثنى مستوعبا ملاحمها على مهل . ماوقفت عليه أغزر وأغنى مما أقدر على

شموله أو استيعابه مرة واحدة ، شأن من يحسو شرابا رائقا ، مسكرا ، فيرشفه متمهلا . متمنيا ألا ينفذ ، لإطالة المتعة ، والتمكن من القدرة ، ربما نعم لهذا كله ، وربما لا ، غير أن ما أعرفه ، أننى عند خروجى من بوابة المعرض ، رأيتها ، بمفردها يداها فى جيبى معطفها ، تماما كما كانت تدسها أثناء رواحها ومجيئها بين شجرتى التوليب ، لم أتقدم . إنما دُفعت من داخل . لم أنجأ . إنما بدأ فعلى قبل قرارى ، وحركتى قبل عزمى ، ابتسمت مشيرا إلى آلة التصوير .. تسمحين لى بصورة؟؟..

لاح نبأ ابتسامه من شفيتها المزهرتين ، مدت رأسها هنة إلى الأمام ، قالت برقة ... ليس الآن من فضلك ..

ولم يكن بوسعى إلا الانحناء ، والانسحاب بعيدا ، كلا يا أخى لم أرتد خائبا ، فما لقيته ليس بصدد ، وما سمعته لم يكن توضيحا للحد ، لم تنهرنى ، لم تقطع ، بل تضمنت كلماتها وعدا ، أما عن تراجعى فهذا أفضل ، ربما لأننى طفت ما بين عينيها ، ونزلت بعينى لحظات عند قسماتها ، ملامحها وثيقة الاتصال . إذا ابتسمت مرحبة أشرق فى عينيها طيف حنينى ، وإذا تطلعت متسائلة وقع التلامس بين شفيتها ، والتقوس من حاجبيها ، وإذا تدفقت منفعة فكك قوس قزح ألوانه وأظهرها متعاقبة وليست متجاوزة . وعند مس الخجل تتراجع الشفة السفلى منطوية للعليا وتعمق الغمازتان اللتان تبدوان فجأة فى الوجنتين الثريتين ، الحادتين كالخبر المفاجئ .

حتى العصر عاودت دنوى منها ثلاثا ، وفي كل مرة أقول
مبتسما .. لا تنسى الصورة ..

فيجىء التطمين. والوعد ، لكن ملاحظها لم تأذن بعد . اعلم
ياأخى أننى اعتبارا من هذا العصر. من توجهى الأخير إليها لم أعد
أتحرك فى المطلق ، كل خطوة عندى تجاهها ، وأية إشارة من يدى
هى المعنية بها . وعند أى نطق ، توقع أنها تصغى إلى . ولو بدرت
التفاته منى فيقبنى أنها ترقبنى ، ولو تحركت على مرأى منها ، أو
تحدثت بقربها ، أو جلست صامتا ، فأننى أضمن حركتى وصوتى
وسكونى رسالة إليها لعلها تتلقاها ، لم يعد الوجود مطلقا ، ولم تعد
الكيونة مفرغة أو بلا غاية . بل صرت دوارا فى فلكها . من
توابعها . كان مرورها يكتمل عندى ، جازت ، فاتت حواجز
شقى ، وموانع قديمة ، وسنين مثقلة . وهوما متراكمة ، وأرصادا
من الحزن قائمة ، فكّت أرسادا ، وحلّت طلاسما ، وفسّرت رموزا
استعصى على إدراك كنهها عمرا ، أقول لك قولى هذا ، وما من
حوار بيننا اتصل . وما من تقارب مادى بدأ . لم أعرف بعد أن اسمها
فاليريا ، وهذا حال ياصاحبى جديد ، سأسطه لك وأشرحه ، على
أفسر الأمر لنفسى قبل أن يكون لك ، هذا حق يا أخى والله ،
فبقدر ماهى محدثة ، بقدر ماهى قديمة ، موغلة ، كنت مجروفا
صوبها ، وما من صاحب أو معين ..

قرب الغروب ، قبل رحيلنا بساعتين ، قاصدين بخارى ، أقيم
حفلا صغيرا ، خطب البعض ، وتكلم مهندس من بيرو عن الصداقة

بين الشعوب ، وتحدث البناء الهندي بلغة الأوردو ، وقام صاحبي
فتكلم عن الحضارات القديمة وعن المتجهين صوب المستقبل ،
التقط آخرون صوراً ، لكنني كنت نائياً ، ماتم ترتيبه وما قبل ليس
إلا الاطار الأتم لوجودها قربي ، اكتمل انفلاقي من الزمن بعد أن
صار لي توقيتي الخاص القادم منها ، شيئاً فشيئاً تصبح محور
تقويي ، ولب شدي وجدي . حتى إذا انتهت الكلمات . دخل
شابان من أهل الناحية ، عيونهما آسيوية ، وصمتهما باد ، يحنوا أولهما
على طنبور . ويجلس الثاني إلى سنطور ، اثنان يا أخى اثنان لاغير ،
لكنني لم أتصور قط أنهما سيفجران حزناً معتقاً ، ويستزلان أنينا
كونيا بمجرد أن يجرى الأول قوسه ويداعب الثاني أوتاره ، أصغيت
إلى خلاصة الشجي المتوارث ، إلى لب العويل النائي ، إلى قدح
الشرر الناتج عن عدوخيول التتار الغزاة ، إلى الأسى على بنبان قام
ثم تهدم ، وفراق قسرى جرى ، وتباعد آلاف عاشوا معا . هذه
مناطق عبور ، اقدام شتى دهستها . اعلم يا أخى أن ما انقضى عند
الآخرين باق داخلي وإن استتر . مالم يره غيرى أوليته عنايتي ، ولأن
هبوب الصبابة بدأ ، لأن النذر لاحت لأنها على مقربة ، لأنني على
مرأى منها ، اجتاحتني نسيات البدايات ، ملت تجاه العازف ،
مورجت يدي اليمنى وأشرت باليسرى ، حتى إذا جلا عازف
السنطور أوتاراً ، وفض أسراراً ، وأطلق نغمات طال احتجاجها .
تحرك على الشجن المكثوم في أغوارى فتأهبت للانفلاق ، فلم يعد
ما يحيطني بقادر أو كاف أن يحتوييني ، كدت أو أوشكت ، لكن

ماجعلنى أحجم إلى حين ، انسياب بنية قدت من أطيايف ورؤى ،
منمنمة ، دقيقة التكوين ، عصفور تخلف عن سريره ، أوخلى حرد
بعيدا عن أهله ، واحدة من بنات الأوزبك ، متدثرة بغللات من
زمن سحيق ، لم تفد علينا من مكان ، إنما جاءت من حقبة تتلوها
أخرى حتى حطت في وقتنا تبتسم للكافة في وقت واحد ، فهى هنا
وهى هناك ، هى عندى وعندها وامامهم ، مست يمين القاعة
ويسارها في وقت واحد . بسطت حضورها ولممته ، لم يكن
رقصها أداءً حركيا إنما كان تلميحا وتصريحا . شرحا ومعنى ، على
شفيتها ابتسامة فرحة بنجاة من أهوال تاريخ سحيق ، كان يمكن ألا
تفيض حيويتها تلك لو أن أحد أجدادها الأقدمين أبيد في غزوة . أو
فنى في وباء ، هذا حالى أيضا . فلو لم يتعاقب أسلافي لما وصلت إلى
لحظة التى فيها تلك البنية . طق عندى شرر الفرح ، الهجة الغريبة
لأسباب شتى . لادراكى أننى على وشك الخروج من جب سحيق
ألقيت فيه منذ مرضى وما أورثنيه من أعياء وتدقيق فى الحساب .
ولعلك تذكر ملامحى عندما عدتني مرات يا أخى ، حماك الله من
السوء وأقصى عنك النوائب والحن . ما أصفه لك لحظات لم أعد لها
العدة . ولم يخطر ببالى المرور بها عند بدئ الرحلة ، إلا أننى عزمت
على دفع نفسى فى خضم اللجة مع جهلى المطبق بالعموم ، طاقت
البنية الأوزبكية ملامسة اليايسة بأطراف أناملها ، حتى دنت
وتمهلت وكنت أول من أشارت إليه ليشاركها ، قتت غير خجل ،
بسطت حضورى واشهرت على الملأ وجودى ، تبعتها فكنت الظل

الوارف لأضل بديع . درت حولي ، حتى إذا وقعت عيني على من أحوم حولها ، وأتقرب من مشارفها ، سكنت ، أو قل أخذت عني ، هي متطلعة إليّ ، مبتسمة ، متجهة إليّ بملاحها المتسقة ، الصريحة ، تجاور الرجل الهندي ، ومهندس سويدي ، تتوسط قارتين ، حزمت أمري ، للممت حالي ، قطعت المسافة الفاصلة ، خطاي غير معهودة أو مسبقة لا مني ولا من غيري ، حتى إذا واجهت ملاحي قسباتها ، ولم يعد الفراغ الذي يفصلني عنها كافيا إلا لمد يدي إذا شرعت في المصافحة ، فردت قامتي تأهباً ، وتمنيت لو أن جذعي ساعدني ، لو أن لياقتي واتتني حتى تبلغ الخناء في حدا لم يبلغه إنسان قبلي ، وعندما اعتدلت حدثت مباشرة في عينيها ، في وجهها الذي اكتسى خجلاً ، رصدت طيف سرور فاستبشرت ، هكذا بدأت مراسيمي ، وانبأت باكتمال أوراق اعتمادى ، ملاحها الرحبة لم تحو استنكاراً أو نفورا ، غير أن دهشة خفيفة بدت ، إلا أن ما أعاقني عن التهمة تصفيق القوم ، يحيون إقدامى ، لم آت أمرا فريا ، إنما اسارع إلى المجاهرة ، فالزمن غير مساعد ، وعلى قدر المدة تكون العدة ، ولو أن أيامى ممتدة في تلك الديار لتمهلت الخطى ، لكننى الآن مرغم ، فما يمكن الإفصاح عنه خلال أيام وأسابيع على إنجازها في دقائق . وتلك الرواى التى فى حاجة إلى أوقات طوال لعبورها يجب اجتيازها فى لمح البصر ، عدت ألزم مكاني ، مال على صاحبي ، أو قل أحد أساتذتى . قال إننى كنت صادقا فى تعبيرى ، تطلعت إليه ومنى إليه تدفقت المودة وزهت أسباب الصلة . تأهبنا

للانصراف ، لاحظت توجهها إلى أقصى الغرفة ، قعدت إلى بيانو عتيق ، اختبرت أوتاره . بعثت أناملها أنغاماً متسقة ، إلى جوارها وقفت اثنتان من زميلاتها ، والله يا أخى لم أرهما لحظة العزف ، لم أتنبه إليهما إلا فيما بعد ، بعد إياي من رحلتي ، وتأمل الصورة ، أكتشفتهما ، عجبت ، أين كانتا ؟.. ولكنى أدركت أننى لم أر إلا هى ، ولم يستوعب بصرى إلا طلايتها وطلعتها ، ذلك أننى أشرعت آلة تصويرى ، لم تبد ممانعة . إنما مال وجهها ناحيتى ، فأسفرت عن زاوية لم أعهدا منها اثناء تطلعاتى ، اظن أنها قالت : تعلمت العزف فى الثامنة . رداً على استحسانى ، واظن أنها قالت : الموسيقى لازمة للمعمار ..

اعلم يا أخى إننى آثرت الظن إذ يصعب علىَّ التحديد ، إذ لقيت نفسى فيما بعد أهفو وأحن ، أستعيد أمورا لاقدرة لى على تبيان كيفية وصوها عندى . فبعض مما عرفته عنها أو منها أدركته بالحوارة . أو بالنظر ، بالنطق أو الصمت ، بالأياء أو التصريح ، حتى الوقائع تغمض علىَّ ، ومن ذلك معرفتى لها عند ظهورها بين شجرق التوليب . إذا أستعيدها الآن . أوقن أننى كنت أعرفها من قبل ، وأننى لم أنجذب إلى مجهولة منى ، لكن متى وكيف؟ هذا مالا ألقى جوابا عليه ، صدقنى ..

مما خبرته يا أخى أن العلاقة تفيض بما لايدخل فى نطاق الوعى أحيانا ، خاصة إذا بدأ تواصل ، وشرع فى التوالج ، عرفت ذلك ، جرى فى أيام بعيدة أن جمعتنى الظروف بنية هيفاء ، دقيقة

الحيا ، أجهل لغتها كما لاتعرف لسانى ،. عدا كلمات معدودات من الفرنسية ، دامت الصلة أياما سبعة ، فى نهايتها كنت ملما بتفاصيل دقاق عنها ، وكانت تعرف عنى ، هذا ما احتاج إلى فيض لتفسيره ، وإنى مورد أمرا لطيفا اقضه عليك .. إذ حدث أن وقفت يوما فى صحن مسجد الناصر قلاوون مشغولا بالمعاينة ، عندما دخل رجل أجنبى يتحدث الألمانية ، ولما كنت أجهلها لم أقدر على المجاوبة ، إلا أن عاملا أميا من أهل الناحية ، توقف بدافع من فضوله ، أو رغبة فى المساعدة ، فوجئت به بحرك يديه ، ويشير بأصابعه ، ويهمهم ، ثم ينقل إلىّ وعنّى ، أخبرنى عن هوية الرجل ، واستفساراته عن المبنى ، وهذا مما حيرنى ، حتى جربت فلكيت الوسائل شتى والسبل عديدة . ارجع إلى ما أنا فيه ، إلى من صارت محورى ولب قصدى ، فأقول أنها جاوبتنى بما قلته بعد استحسانى عزفها . خرجت من المبنى ، لحقت بصاحبى . استنشقت هواء باردا ، حوائجنا فى السيارة ، اكتمل تأهبنا للاقلاع صوب بنجارى ، إلى الزمن المطوى ، لطالما قرأت عن مدارسها ، عن قيامها وأفولها ، ثم انبعاثها ، طالعت صور قبابها ، وأسواقها ، وعقود مبانيها ، وتصميم قلعتها ، امضى إلى المدينة العتيقة وقد بلغت مدى بعينه ، ألم تجاوبنى ، ألم تواجهنى باسمه لاح منها مالا يمكنى اغفاله ، أليس بداية الضوء وهن ؟ رسول الغيث قطرة ، أول السعى خطوة ، إذن ؟ لا يبقى إلا العزم ، ودعاء بإقصاء بغتات المقادير ..



مساق المسلسل

.. يا أخى ، اجي الله توكا من يحبك إليك . وقربك ممن تهوى ، وقوى يقينك ، وأعانك على سعيك ، اعلم أن رحيقاً عذبا سلسيلا بدأ يسرى عندى ، وأنتك لعالم بحالى القديم ، وعندي الرغبة أن أحدثك عنه ، لكننى مرجئ ذلك ، فلأن الظهور اكتمل ، على المتابعة ، اعلم يا صاحبي أن اليوم الذى شهد تمام تجليها فى تلك المدينة الآسيوية ، اقترن بحدث ، أن بدأ منفصلا إلا أنه متصل . عند بدء رحلتنا ، وقبل فراقنا ديارنا ، جاءت ابنة صاحبي مودعة ، انتحت بى ركنا وأسرت أمرا ، أخبرتنى أن عيد ميلاد والدها سيحل أثناء سفره ، سيكون هو فى ناحية وهى فى ناحية ، رجتنى أن أنوب عنها فى تقديم زهور إليه . ان هذا سيسعده جدا ، قلت لها ألا تقلق ، إنه ليس فى موقع الأستاذ منى .. إنما الصاحب ، وهذا لم يتم إلا بعد سنوات طوال . تقلبت فيها الأمور ، وشهدته يخوض حربا ضد لصوص المقاوله ، ومن يفسدون الذوق السليم ، لا محرك لهم إلا جشع الربح ، غير عابئين بأحوال العباد . وللصحة عندي يا أخى منزلة أكيدة ، كما أننى أضمر له محبة ، فهو من مدوا

لى العون وقت الشدة ، وبخلاف ذلك هو ممن ثبتوا فى الطريق ،
ليس ممن مالوا مع الهوى أو حادوا ، ولهذا تفصيل يطول ، أقصر
عنه خوف الاملال . عند بداية نهارنا فى طشقند سألت مرافقتنا
الروسية عن مكان لبيع الزهور ، أفصحت عن غرضى ، وعدت أن
تدلى ، نصحتنى بتقديم عدد فردى ، خمس زهرات أو سبع ،
قالت إنهم يتفعلون بذلك فى هذه البلاد . أما إذا وعى الطرف
وحل الحزن فتكون الأعداد زوجية ، وهذا غريب على ، أثناء
تجوالنا قادتنا إلى ناصية تصطف عندها مناضد فوقها سلال الورد ،
وأصص من الخزف ، مددت الخطى ، ابتسمت المرأة العجوز ،
تغطى رأسها بمنديل نقوشه شرقية . تناولت سبعا ، فى نفس اللحظة
تقدمت مرافقتنا ، وعندما لمحنى معارى من الجزائر العربية خطا
صوب الزهر ، لم أعد بمفردى ، أبدى الرجل تأثرا ، تساءل عمن
أطلعنا ، ثم تدارك قائلا : لابد أنها ابنتى . احتضنته مقبلا ، تبعتنى
الروسية وهى مهندسة ممن يقمن على صيانة وحفظ المسرح الكبير ،
وأعقبنا الجزائرى ، أما بقية القوم فوقفوا يرقبوننا باسمين ، حتى
فرغنا ، فتقدم نحو صاحبى . الكولومبى ، والهندي ، ورسام سنغالى ،
أما هى فقد أقبلت مبتسمة ، حيث وهنأت ، كان ذلك أول النهار
فى طشقند ، ومع اكتمال المساء حللنا بخارى ، تبدل الوقت ،
بحساب الساعات ينقص واحدة عن طشقند ، وثلاث عن
موسكو ، وأربع عن قاهرتى ، أما بمنطق الدهر فلا حد ، بخارى
يأخى لها رجع عندى قديم ، من المدن التى ظننتها بمنأى ، خارج

المتناول لشدة البعد ، وانقطاع الظرف المساعد ، كما ارتبطت عندي
يجمع من القوم النابغين ، ونوع محبب إلى من الأبسطه النادرة ،
ألوانه أصلها واحد ، الأحمر ودرجاته ، العقيقى والياقوتى
والشفقى ، أما زخارفه فهندسية . مستطيلة ، متقاربة ، متباعدة ،
شأنى مع ذاتى ، مع من أحببت ، بها شبه من نوافذ تعد
ولاتفصح ، أما الاطار فمحكم كالظروف المقيدة ، نزلت بخارى ،
فجلت بنظرى عبر فراغاتها ، كان حضورها مدججا بالماضى ،
جئناها ليلا فلم تكن المعالم بادية ، لا تفصح المدن عن مكنونها
للغريب فى العتمة . تجدها مضمومة ، غير منبسطة ، حتى إذا
انفردت بنفسى فى غرفتى ، وتطلعت عبر الشرفة كدت أوقن أننى
جئت الديار يوما ، واننى تنسمت هذا العبير الصحراوى زمنا لم
أعشه ، كدت أستسلم لما أوشك على الإصغاء إليه ، غير أن
حضورها القصى دعانى ، ولم يكن بوسعى إلا أن ألبى . كنت نادما
على أية دقيقة تضيع بدون أن يقع عليها بصرى ، أسرعت إلى
المطعم ، لمحت صاحبى قاعدا ويجواره مرافقة الجمع . والمعارى
الجزائرى ، وأستاذ فى هندسة الجسور من سيام ، جلت بنظرى
لأحدد مكانها ، لم ألحها ، غير أنها لم تتأخر ، ولجت القاعة مُبسَّقة
فارهة ، لا ترتدى المعطف الرمادى الذى يخفى معالم وجودها الحسى ،
ترتدى قميصا من الصوف ، تتعاقب ألوانه كموج البحر فى مثلثات
متداخلة ، أحمر صريح ، وأبيض ناصع ، وأسود قائم ، القميص
فضفاض ينسدل على كتفها ، أما بنطلونها الأخضر القطيبنى المصنع

فيخفف من انفلات جسدها الأنوثى ، بلغنى حضورها الحسى
القوى على البعد ، وإن لم أقف على شواهد ، ولم أمس تحومه ،
قعدت بالقرب ، يجاورها الهندي ، ومعمارى من بيشاور ، راحت
تتابع رقصا عذبا ، وغناء شجيا يمت إلى ماضى الناحية ، كنت
أحوم وأحط عندها ، إما بنظري أو حواسى الأخرى حتى جرى مالم
أتوقعه ، توقف العازفون ومالت المغنية الشابة هامسة لأحدهم ،
وعندما استدارت لتواجهنا ، فوجئت بلحن يمت إلى ربوعنا ،
أغنية شائعة تنادى عاشقا باسمه ، إلا أنهم غيروا ، فكان اسم
صاحبى بدلا من اسم المحبوب ، غمرتنا بهجة إنسانية ، وقفت محيا
مرافقتنا التى دبرت ذلك . بانث السعادة على وجهه وكان ذلك من
الطف مامرت به ، فى غمرة الود بسطت يدي داعيا ردت
بابنسامة ، ابنسامة لم أعهد مثيلا لها ، إن جاز الوصف فهى رجة ،
دالة ، مدلة ، عند طلوعها من أفق ثغرها تضيء وجنتيها ، ثم تترقق
فى عينيها ، وكافة ملامحها وتنتقل إلى ماحولها ، يشع عبرها ، فيه
قبس من سر تدفق هذه الحياة الدنيا ، فبت ، تقدمت منها ،
أشرعت ودى فلبت ، نظرت إلى رفيقيها ، قاما يتبعانها ، خطت
فصافحت ، اتسعت الجلسة فشملت ، واجهتنى فأتيت لى طول
الغلى ، أدركت يا أخى أننى على وشك الاقتراب من مشارف لم
يسبق تعيينها ، لكننى متأهب لخط رحلى . لإقامة مضاربى ،
للخروج على الناس بادئا عرضى ، كنت موقنا أن لون الدماء يتغير
فى عروقى ، وأن روافد نهر قلبى تتخذ مسارا جديدا ، كذا نبضى ،

وحواسي كافة ، هنا لا أجد مفرا من الوقفة ، حتى أطلعك على
بعض مما وددت ورغبت تفصيله لك ، فكثر من أموري لم تحط بها
علما ، بعد أن باعدت بيننا الظروف زمناً ، واغترب كل منا ، أنت
في سعيك ، وأنا في مقامي ..

تفصيل

.. اعلم يا أخى ، جنبك الله المحن ، وأقصى عنك الشدائد ،
 وخفف هجيرك ، إن ماء فيضى كان قد بدأ غيظه منذ زمن ، وأن
 شحاً أدرك دفتى ، وأن أوصالاً تقطعت عندى ، وكثيراً ماقرأت
 شكواك من الغربة ، ولكنك لم تدر وأنت تبثى همك أننى مغرب
 مثلك ، وأوعر الننى ماكان فى محل الإقامة ، وأوحش الوحدة
 ماكانت فى الجمع . أقول ياأخى إن الأسباب تجل عن الحصر ،
 منها ماتعرفه ، وما تجهله ، منها ما سأذكره لك ، ومنها مالا أقدر
 على تقييده ، تكفينى الإشارة ، تعلم يا صاحبي أن الظروف لم تكن
 قط سهلة منذ البدء ، وقد ربينا معا ، ودرجنا ، وأحبينا وخططنا
 لتحقيق الحلم . لكن الظروف لم تكن مساعدة ، لست بحاجة
 لأن أحدثك عن أيام دراستنا الجامعية ، وهذا التدفق ، وتلك
 الحيوية ، كان الحذر نائيا ، والبوح من خصالنا والمجاهرة ، والشعور
 أننا نتحمل مسئولية اصلاح هذا العالم ، وأن مصائر شتى أقدارها
 حول أعناقنا ، وأن أهلا لنا غير قادرين على إسماع أصواتهم لمن
 ييدهم النهى والأمر ، والحل والعقد ، آثرنا أن ننوب عنهم ، لن

أستعيد أيام المعتقل ، فلطالما أفضت في سرد أحداثها . وما جرى لنا فيها وما عسيناه من وحشة وعزلة ، وإرغام قسرى لنفض أختامنا ، هل تصدقني إن قلت لك يا أخى أن أيام السجن تلك تهون عند تذكرها إذا ما قورنت بأيام تلت كنت فيها حرا ، طليقا ، لا أسعى على هواي داخل موطنى فحسب ، وإنما أسافر إلى بلدان شتى ، أيام ادراكى بأن ما يجرى مهول ، وأن التدهور يتم بأسرع مما نتصور ، وأن التغيير إلى الأردن والأسوأ يليق المساندة من قوى تفوقنا بكثير ، هذا مع وقوع الخلف والمعاكسة بين من قدرهم التصدى والمحاربة ، وأصعب ما يواجهه إنسان ، إن يلقى نفسه وحيدا في مواجهة عتو طاغ ، ولا مبالاة جارفة ، وفساد شامل ، فيدرك ولا يفعل ، يعي ولا يتحرك إلا بقدر إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، والله يا أخى لم أتقاعس قط ، إذ شاء حظى واختيارى أن ألزم الصفوف الأمامية ، عند الأقاصى وعندما بدأت كان الواقع كله ميدانا لى ، حتى حلت سنوات العقد السابع فتدنت الأحوال ، وتقهقرت الأمانى ، وتقلصت الساحة حتى ضاقت فأصبحت ذاتى ، صار همى أن أقيم المراسد والقلاع على عجل ، حتى يبقى الجوهر سليماً ، والنواة بمنأى ، كلفنى هذا الكثير يا أخى ، حتى جرى لى ما سمعت أنه جرى لآخرين وظننت أنه لن يطالنى قط ، وأنى لقاص عليك واقعة لم أخبرك بها ، ولم أفصلها لك . ربما لأن الفرصة لم تسنح لقلة لقاءاتنا . وتباعد المزار بنا ، تعرف أننى خبرت عللا كثيرة ، وأمراضا ، غير أن ذهابنا إلى الطبيب لم يكن إلا إذا دنا المرض من

حد الخطر ، بل كنت إذا سمعت بصاحب أو غريب مضى إلى
 طبيب يداوى النفوس أسخر فوراً . هل تدرى أن الأيام مرت بي
 حتى سعت ذات غروب إلى واحد منهم . كان ذلك قبل سنوات
 تسع من اكتمال ظهورها في مدينة طشقند النائية بين شجرتي
 التوليب ، في هذا العام ، ألف وتسعمائة وثمانية وسبعين ، ضاقت
 على الأرض بما رحبت . وبدا الوضع الجاثم أصعب وأثقل من أن
 نبذله في لمح البصر كما نرغب ، في تلك الليلة كانت الأحوال كثيرة
 على ، والظروف متكاثرة ، كنت بين النوم واليقظة عندما قت
 فجأة قاعدا في سريري ، اضطراب غريب في امعاني لم أعهده
 وأوعر الآلام ما كان غير مسبوق . بدأ هبوط لين . دقيق . لكنه
 مخيف ، مدجج بالندى ، بدأ ارتجاف أوردني ، ونفور نبض قلبي ،
 الأدهى والأمر وعيي المكتمل أن النهاية ستم بعد دقائق ، بل قل
 لحظات ، وهنا لي وقفة ، فربما حان أجلي بعد خمس ثوان من
 تسطيري هذا ، لكنني مادمت لا أدري فما من جزع أو خشية ، أما
 لو علمت الآن أنني سأقضى بعد خمسين عاماً كاملة في يوم بعينه
 وساعة محددة ، أؤكد أن حالي سيصير نكداً ، سأحصى كل لحظة
 ماتيني ، أقول قولي هذا وأنا واثق أن ماتيني أقل مما انقضى ، وأن
 ماصار ورائي أطول مما سألقاه أمامي ، وأنى لحدك يوماً عن القضاء
 والقبض في رسالة أفرد لها خصيصاً ، إذ شغلت بالأمر جداً منذ هذه
 الليلة ، أقول يا أخى إن الإنسان يظل مطمئناً ، راضياً ، حتى لو أن
 أجله سيحين بعد دقائق . لا تدرى نفس ماذا تكسب أبداً ، ولا

تدرى نفس بأى أرض تموت ؟. وهذا من أجل النعم فانتبه ! .
 دهمنى فزع ، صار حضورى كبرياً ، غزائى فزع أكبر ، تزايد
 وعيى بأن ما تبقى لى مجرد ومضات ، أننى سأقبض هنا ، أن زمانى
 انتهى ، وهنا بزغ عندى الهرب ، أن أولى فى الأرض لعلنى مفلت
 من اللحظة ، مع تمام علمى ويقىنى أنه يدركنا ولو كنا فى بروج
 مشيدة ، فكان حالى مثل الرجل الذى هرب من الموت إلى الهند ،
 وتلك حكاية طالعها فى كتب الأقدمين ، وانى لقاها عليك ..

حكاية دالة

يحكى أنه فى ضحى يوم ، كان سيدنا سليمان يجلس على عرشه
يحيط به الإنس والجن ، عندما دخل عليه رجل من رعيته مفزوعا
مضطربا ، قال لسيدنا سليمان الحكيم ..
« الحقنى .. انقذنى يامولائى .. » .

تعجب سليمان متسائلا :

« ماذا بك ؟ » .

قال الرجل إنه كان فى الطريق عندما رأى عزرائيل ملك
الموت ، نظر إليه شزرا وبدا حانقا ، غاضبا ، منذرا بالشر ، تملكه
رعب ، أدرك أن أوانه دنا واقترب ، لذا يرجو سليمان الحكيم أن
يأمر الريح بحمله إلى الهند ، إلى أقصى أرض هناك ، حتى ينجو من
الموت . رق سليمان له . أمر الريح فحملته فى اغماضة عين إلى
الهند .. بعد قليل ظهر ملاك الموت فعاتبه . سليمان قائلا :

« تسببت فى غربة أحد رعييتى ونأيه عن وطنه ، لماذا نظرت إليه
غاضبا عندما قابلته ، لماذا أرجفته ؟ » .

قال عزرائيل ..

« لم انظر إليه غاضبا ، إنما نظرت إليه متعجبا ، لأن الله أمرني
أن أقبض روح هذا الرجل في الهند ، فلما رأيته هنا تعجبت .. كيف
سيصل إلى الهند وأنا مأمور بقبض روحه بعد لحظات ؟ .. »

رجى إلى ما انقطع

- فرغت !

هرعت إلى أقرب باب إلىَّ يؤدي إلى الشرفة ، اتجهت إليه ،
وعندما شرعت في اعتلاء السور أدركتني والدق ، أيقظها حسها
الأمومي وما أحدثه فتح مصراع الشرفة من ضجيج ، كنت أبغى
الوصول إلى الطريق بأقصر وأسرع وسيلة ، حاشتنى ، صرخت
فدب في وعي الروح الحافظة ، انشيت إلى الداخل مبتلا بعرق
مرددا ..

مازلت أحياء .. مازلت أعيش ..

في عصر اليوم التالى قال لى الطبيب المداوى إن القلب سليم ،
وأن علاج العلة يختص به أطباء النفوس ، هكذا سعت بقدمى إلى
أجدهم ، أصغى ، دون ملاحظات شتى ، ثم أطلعنى على ماخفى
علىَّ ، ما مرَّ بى أعراض اكتئاب شديد جاثم علىَّ . وصف لى أدوية
ونصحنى بخطة ، أن أغير مسارى ، أن أبدل الإيقاع ، هذا ما قاله
لى ، غير أن ما أدركته تلك الليلة ، ما لم ينفذ إليه هو ، ما لم أفص به
حتى لأمى ، ما لم أبج به من قبل ، وعي أن احتضارى بدأ هذه

الليلة ، علمتني التجربة والأطلاع على أحوال الآخرين ، أن البعض يبدأ احتضارهم في الثلاثين أو دون ذلك ، وقد يمتد بهم العمر إلى الستين ، إلى السبعين ، وفيما تلا ذلك عرفت أعراضا شتى ، نمت أحيانا وعندى يقين أن النهار لن يطلع عليّ ، قمت فزعا من نومى ، خشية الموت ودمعى نازف ، عبرت طرقا أراها بعينى من سبقي بعدى فى هذا العالم ، أشدت عماثر لم أثق أننى سأتمها عند وضع أساساتها ، وعندما اكتمل يتمى بفقد أُمى ، أنهار حاجز كنت أعده حاميا ، يحول بينى وبين أدراك العدم ، وعندما طلق الألم وسد وريد ساقى ، قال لى الطبيب ، إنك محظوظ ، كان ممكنا للجلطة أن تتوقف فى موضع أشد دقة ، قال ان هذا بمثابة إنذار طلب منى ما يستعصى عليّ ، ألا أنفعل ، أصغيت ولم اعلق ، وخلال اضطجاعى أربعين يوما ايقنت أننى قطعت شوطا ، نال بنى النصب ، هدنى تعب ، نأيت عن الأصحاب ، وندرت أوقات الرفقة ، وشحبت المحبة ، وهذا كله من علامات عصر انقلبت فيه الأحوال وصعب عيشى ، وظننت كساد سوقى ، وفساد متاعى ، واعتراض ركبى ، وانقضاء الأكثر وبقاء الأقل ، صعب حالى ، ووعر ظرفى وبقي الأمر فى شدة حتى هذا الفجر ، حتى مطلع النهار فى تلك الأقاليم الآسيوية ، وبترأى الموضع هذا واجهت اشراقها ، وحضورها الفتى ، الهبى ، لعل وعسى !!

إفصاح

اعلم يا أعز صاحب - رقق الله خواطرة - أنها واجهتني :
 شغلت فراغا أمامي بضياءها ، شددت رجال بصرى صوب
 ملاحظها ، وعمق حضورها ، محاولا التمكن من نصارتها ، وغرابة
 عينها الرحبتين ، الطاقتين ، النورانيتين ، حيث يتطهر فيهما الضوء
 ويشف ويرق ويرتد إلى عناصره الأولى ، حتى هذه اللحظة لم تكن
 تعرف عنى شيئا ، كانت تجهلنى ، لا من حيث صفتى واسمى ،
 لكن جوهرى أعنى ، وإن خمنت إدراكها لما يتطاير صوبها من
 شررى ، من وهج وألق ، كنا مازلنا فى غمرة احتفالنا بصاحبنا ،
 بجاء رفاق الرحلة . تضاموا صرنا جمعا ، انشدوا فأنشدنا ، لوحوا
 فلوحنا ، شاركت من بعيد وإن كنت على مقربة ، كان انشغالى
 يتزايد ، كنت مشرعا حواسى لإدراكها ، لاستيعاب جلوسها ،
 تراجعها برأسها المائل قليلا ، ابتسامتها التى تطل فجأة ساعية صوب
 العالم بأسره ، فما البال لو خصت شخصا بعينه ، سلكت طرقا شتى
 صوب ابتسامتها تلك ، تارة خلصة ، ومرات مباشرة ، علانية ،
 كنت فى عجلة ، فالوقت محدود ، وعندى حشد لا بد من دفعه

وايصاله في فترة وجيزة . أما الآن فهمي الأول إعلان ولائي ،
وتبليغ فيضي ..

اعلم يا أخى ، أننى عند اطلالة افراحي تتحرك أشجاني .
تساءلت إلام سيستمر هذا ؟ إلى متى وزمن الرحيل محدد ، لم يتبق
إلا أيام معدودات ، بل أمعنت فتساءلت ، كيف سأستعيد هذه
اللحظات فيما بعد ؟ وهل سأقلب عليها حسرات ؟ كيف سيعصف
بى شوقى ، وكيف سيكون وجدى ؟ هذا حالى يا أخى أرى النهاية
في البداية ، والأفول في البزوغ ، والغروب عند بدء الشروق ، لا
لحظات حميمية تأخذنى عنى ، ولا اندماج كلى فى عمل يشغلنى
عن جواى ، فوجئت بصاحبى المحتفى به يقوم واقفا ، يدعوها إلى
رقص فتلبى ، تمضى أمامه ، متأودة ، لها رسوخ ، يتدفق منها كيان
بأتمه ، لم تكن تسعى ، إنما تفيض ، لم تكن تخطو ، إنما تهمس
لليابسة بموطئ وجودها الحسى ، تابعت خطوهما حتى ولوجهما
الحلبة ، ملامسة صاحبي لكتفها ، ابتسامته ساطعة ، عنده بشارة
دائمة وحاسة متأججة ، يسعى الطلبة إلى محاضراته لجاذبية إلقاءه ،
وحرارة خطابه ، وجزل عباراته ، يتجاوزنى عمرا بما يقرب من
خمس قرن ، غير أنه فى حركة عنى ، متدفق الانفعال باديه ،
صريحه ، ينفذ إلى الآخرين عبر كلماته ، على نقيضى ، إنما يكون
ذلك عندى بصمتى ، بانفجاري المفاجئ ، أتابع خطوهما ،
تلاقيهما ، تباعدهما ، تحاور جسديهما ، يميل المعمارى الهندى فجأة ،
هامسا ..

« معجب أنت بها ؟ » .

في صوته النحيل ود ، رغبة في القرى ، لم أراوغ ، أوأمت ، قال باختصار دال ، شأن من يبصرنى ، من يطلقنى على خبايا لأقرر ، لأحسم خيارى ، قال إنها فى الرابعة والعشرين ، متزوجة حديثا ، تحب زوجها ، أنها متخصصة فى ترميم المباني القديمة ، صمت لحظات ثم قال ، إن المرافقات كلهن ينمن فى حجرات متقاربة ، كل منهن بصحبة زميلة لها . أفضى ثم تطلع إلى ، إلا أننى لم أعبا ، فما أتأهب له ، ما أشرع فيه لن يدركه من يعرفنى ، فكيف بمن يجهلنى ؟ ، عندما عاد صاحبى المحتفى به . مال على هامسا ..

« إدعوها للرقص .. »

تطلعت إليه مضطربا ، كأنى خشيت أن تكون سمعت اقتراحه مع أنه أفضى إلى بلغة لاتعرف منها حرفا ، أننى لا أتعن الرقص فكيف أجزؤ . فكأنى مقبل على ارتداء لباس غيرى ، عاود صاحبى الهمس ..

« هذا لايليق .. » .

أعنى أننى من جهة ، وهى من أخرى ، أننى قادم من زمن غير زمنها . ميراثى مختلف ، بوهجها تبدو فى بداية ، أما مفتحتى فقد أغلق منذ حول ناء ، هى فى إقبال ، وأنا فى إدبار ، هى فى قلب الراحلة ، وأنا متعثر الخطى ، يمكن أن أتخلف فى أية لحظة ، فأية كهولة مبكرة نالت منى ، وأية شيخوخة أدركتنى قبل الأوان فى هذه اللحظة انتهت إلى تطلعها . صوبى ، بدأ حضورها مختلفا ، مغايرا لما

كانت عليه منذ دقائق ، أنها مترقبة ، متوقعة ، كأنها مشرفة من
 عل ، انفراجة شفيتها لا تلاحظ ، أما أفقها فرحب مضى ..
 . « أنت محطى ، أنها تنتظر .. »

بما أننى اعتبرت وجودها محطى ، وشرف غايتى ، فلماذا لا
 أسلك الدروب كلها . ما أعرفها ، وما أجهلها . فلأتغاض . أتخفف
 من أثقالي ، فلأعد ترتيب مكنونى . فلأبسط ما تيسر من أمرى .
 قت واقفا ..

« أتدعونى ؟ » .

جاوبتها بنظر رق فشف فدل فأفضى ..

« إذا سمحت .. » .

بسطت يدى ، تقدمتنى ، عندما دنوت ، لم ألس صوف
 قميصها إنما بدأت اتنسم مشارف وجودها الحسى ، منه تسربت
 تجاهى اشارات وإيماءات ، أثق أنها لاتعى من أمرها شيئا . كما أن
 تفصيل القصد منها مبهم وإن أدركت محصلته النهائية ، بدأ
 القرب ، فلما ضاقت المسافة بينى وبينها .. وصلنى من أنفاسها بريد
 مفضوض . غير ذى طوى . ينبئ القاصى حتى بعبيرها ، فما بال
 الدانى الملهف ؟ ، منها بدأ سنها لم أعرفه عند جلوسها فى مواجهتى ،
 وحضور مغاير لما طالعتة منها عند سعيها اليوم فى بخارى ، اعلم
 ياصاحبى ، أننى إذ أخط لك هذا الآن ، إذ أستعيد الشوارع
 العتيقة ، فلا أراها إلا مقترنة بها ، هى فى البؤرة ، ولب المركز ،
 أذكر امتداد سوق الصيارفة القديم المبانى على جانبيه ، وتوالى



القباب ، فلا يتكشف لى منه إلا بمقدار تتابع خطاها ، وإذا توقفت وتراجعت برأسها ، وهفهم شعرها الجميل ، فإن رؤيا ذاكرتى تتوقف معها وتجول صوب ما كانت تنظر إليه ، حتى إذا خطت فى السوق المغطى تبعها خواطرى ، وشرعت فى ملاحظة البنيان ، إذ أستعيد مدرسة مير عرب التى تقف زمنا طويلا لرؤيتها ، والوقوف على معمارها ، أراها بداية عند مدخلها ، تلج إليها بقامتها السامقة ، تتمهل عند الجدران المنمنمة فأتمهل ، ومن مركزها أرحل هنا وهناك ، أما الزاوية التى اختارتها لتنظر منها إلى مثذنة كش الصاعدة إلى ذروة الفراغ ، صوب لب الأعلى . فنفس الزاوية التى استعيد منها مرأى المثذنة الآن ، المثذنة وهى متواجهان ، وما بين عينيها والبنيان الملتف حوار وخطوط اتصال ، أما الساحة التى يخيم عليها هجير قديم ، وفراغ خفى . فتوشك أن تردد أصداء الأقدمين الذين عبروا ، وتوقفوا هنيهات أو حقبا ، الذين قدموا آمنين ، أو الذين هرعوا ، أو الذين جاءوا عنوة غازين ، ومنهم ، سيد المحتاحين ، جنكيز الذى لا أدرى من أية زاوية تطلع إلى مثذنة كش راكبا فرسه ، قبل أن يستبيح المدينة ويطلق فيها جنده فيخربوها ، فكأن هذا كله يا أخى لم يصل إلى زماننا إلا لتقف عليه هى ، ولتقع عليه عيناها ، أما مدرسة مير عرب ، فبرغم بهائها وسموقها فكانت تنقص عنصرها ، لم يكتمل لابقوفها فى باحتها ، وتأملها المتمهل للنقوش ، والآيات ، والعبارات ، وانتظام الأبيات ، فكأن الذين نضاغوا التصميمات فى الحقب البعيدة ، الذين أشرفوا على تشييد تلك

العماير ، استطلعوا النجوم وأهل الخبر فأنبأوا في حينه بمجيء تلك
البنية ذات يوم ، فراعوا ذلك ، وانتبهوا إلى العنصر الناقص ، حتى
إذا وفدت إلى عالمنا ، ونمت ، وشبت ، ورحلت ، اكتمل
البنيان ، وتضافرت العناصر ، لو أنك بصحبتى واشهدت تجولها في
القصر الصيفي ، انشاءها عند المنحنيات ، وسماحة ملاحظها عند
نظرها النقوش لأيقنت أن المكان لم يشيد إلا لسعيها هذا . ولما خطر
لك ما أظنه سيجول بذهنك لحظة قراءتك هذا ، أنى مبالغ ، أبداً
يا أعز صاحب أبدا ، اعلم يا أخى أننى فى حلبة الرقص طاف بى
مآجرتي . ذلك الترقب الذى يلزمنى عند جوازي عبر مداخل العماير
القديمة ، والممرات المؤدية ، حيث الصحن الفسيح بعد الممر
المدهل فكأنه الفرج بعد الضيق ، أو اليسر بعد العسر ، كنت أدع
نفسى فى مساجد بخارى لأرصد توالى المشاعر على خاصة عند
دخولى ، كنت أشرع حواسى لالتقاط روائح المكان ، فلكل معمار
رائحته الملازمة ، التى تمنحه خاصية ، وخلال هذا كانت هى
متداخلة بشقى العناصر ، انبهارى بالواجهات السامقة لم يأخذنى
عنها ، ونفاذ العتاقة إلى صميمى لم يغيبها عنى . كذا مقارنتى لحظات
الدخول ، بدخولى إلى قبة قلاوون وضريحه ، أو إلى مدرسة
السلطان حسن ، أو خانقاه برقوق المشيدة من توالى الأيام . المدثرة
بصحراء تختفى رويدا أمام نمو المدينة ، هذه الخانقاه التى أعشق ،
ملاذى من هجير عصرى وزمنى ، عند اقترابى الأول منها لا
أدرى ، ولا أجد تفسيراً لالحاح حضور هذه الخانقاه بالذات

على ، ولحظات قعودى عند الظهر متطلعا إلى إحدى القبتين اللتين تسلفان الفراغ العلوى العظيم . ربما ليقينى الخفى ، إننى سأخلو إلى ذاتى هناك واستعيد هذه اللحظات عندما تصبح زمنا مندثرا ، لا أقدر على استعادته ، وعندما يتزايد ضجيجى المكتوم ، ويشدد كلمى !.

اعلم يا أخى ، أننى بعد أيايى ، وبدء وجدى ، حاولت جاهدا استعادة ملاحظها فعبزت ، حتى الصورة الوحيدة ملك يمينى لم تسعفى ، بوثوق أقول لك إنه مامن صورة أو لحظة مستعادة يمكن أن تدل عليها ، أو تظهر بعضها من جوهرها ، فى كل لحظة تبدى مظهرها ، وعند كل التفاتة تظهر جانبا ، ولحظة انتقالها من وقت إلى وقت تسفر عن حضور مختلف ، فبأيهم استدعيها عندى ؟ وبأى رسم أقربها منى ؟ وما جهدى كله بعد نأى ، إلا الاقتراب من هذا الحضور المتغير ، المتوالى ، المفاجئ بما لم يدر به توقع ، المحاولة وعرة بأخى ، أيمكن تلوين عبر الزهرة ؟ أنقدر على رسم مسار تغريد الطير ؟ أبوسعنا اقتفاء أثر لحظة ولت ؟ تتوالى ملاحظها ولا تظهر ، فى كل لحظة تولد من جديد ، بعض من مكنون نظرتها مصون فى صندوق غرارة قلبى ، لكننى عاجز عن تمثله بعينى عقلى أوقن أننى لن أستعيدها حتى وإن التقينا مرة أخرى ، فما كان منها كان ، وما سيجىء سيجىء ، النظرة الحيرى أطلت وتلملمت ، والطفلة الوجلى قفلت وانتهت ، والابتسامة الرائقة كانت ولن تكون حتى وإن دار الوقت دورته ، وتذلت العقبات ، وأذنت الظروف هذا من

عوامل مرارتى. غير أن لهذا أهم موضعه، فلماذا أتعجل؟ لماذا أنقل عليك؟ جنبك الله يا أخى كدورانى. أما الآن فإننى منثنى إن ما كنت فيه، مطلعك على تدفق رقصها، على اضطرابى، على ميلها ونصحها، أن أدع جثمانى على سجيته، ألا أكون عصيبا لكن هل تفك كلماتها ما عقدته سنون طوال، ولما أبدت ملاحظة أننى كنت أبدو رائعا فى العصر، عندما واجهت البنية الأوزبكية تمهلت. كنت دانيا منها. محيطا خصرها بيدي، ولأنها النواة وأنا الجزىء، كان لابد أن أدور حولها. استعدت رجلا صعيديا شهدته ذات شتاء يرقص فى ساحة معبد الأقصر أثناء مولد سيدى أبو الحجاج رضى الله عنه وأرضاه. كان رقصا عجيبا، متدفقا، رجوليا شامخا، قلت لها اننى لا أتقن الرقص. إنما دعوتها لأننى رغبت فى القرب منها. قلت إننى لم تتح لى فرصة حوار أو حديث إليها وكنت مشوقا إلى التلميح ببعض مغاليتى، عند هذا الحد توقفت فجأة فأوشك الآخرون على الاصطدام بى. لم أعبأ، تعرف يا أخى أننى عندما أنوى أمرا لا أتقاعس، لا أرتد خطوة، لا أحسب الريح أو الخسارة، فما البال وقد بدأ خوض اللجة؟ نطقت بما يدل على ما بدأ عندى، هل بدت عليها دهشة؟ ربما. هل بوغنت؟ ربما، ما أدريه أنها أجابتنى بهدوء راسخ.

«وكيف أصدقك؟»

أوشك كل جواب على مغادرتى، خفت نفاذ زادى من الأحرف، صرت نبضا. وتبسست خفقا، بذلت الأقاصى حتى

نطقت ، قلت إن دليلى هو حالى ، وليس لى إلا السعى ، ولها
الرفض أو القبول فلتمنن أو لتغدق بغير حساب ! .
قلت إن الزمن غير مساعد ، والوقت ضاغط ، والبراح ضيق
فجعل اعتمادى واتكالى على سلامة أحاسيسها وصفاء قدرتها على
التلقى ، ذاك حسبى ! نظراتى اشتبكت بنظراتها ، أنا ساع وهى
مترقبة ، هنا رصدت أمرا يستعصى على الإدراك ، كنت فى لب
فلكى ، وعين توقيتى ، ومن حيث لا أدرى أبحر مبتعدا عن مركزى
القديم ، أدنو صوبها هى القادمة من قلب المجرات سحيفة البعد ،
التي لم تكتشف بعد . ألا تهيم النيازك والشهب حتى إذا دنت من
بجاء للجاذبية يحس ولا يرى ، يبدو أثره ولا يمكن الإمساك به ،
تهوى إليه ؟ فمنها ما يدور إلى أبد أبدي ، ومنها ما يحترق قبل ملامسة
سطح الفلك ، ومنها ما يستحيل بعضه ضوءا ، ويسقط ماتبقى منه ،
وقد كنت أنا هذا كله ، فأنا حاتم ، ماض ، دوار ، مأسور ،
محترق بذاتى ، منتقل من كينونة إلى كينونة ، لا راد لى ولا كابح ،
حتى إذا أفضيت ، لحت فى أفق عينها بادرة مجاورة ربما كان طيفا
أدق من أن يرى ، ربما ميلاد رائحة ندى ، لم يغب عنى ، مع أنه
انتهى لحظة بدئه ، إلا أنه وصلنى فبدأ عندى وكفى وصلصلت
زلزلة ! خبطت الياسة بقدمى ، فتفجر منى عهد قديم ، وبدأ
تدفق ! درت حولى ، ملت على ، أقلت تجاهى ، تدفق قلبى
المرهق يعدو أثرى محاولا اللحاق بى ، أما الموسيقى المتفجرة فولت ،
صارت ورانى ، لم تعد مطاوعة فتلاشت الكينونة ، ولاحت

الحضرة ، أما هي فراسخة ، ثابتة في جوهرها الدرى ، تقف مائلة قليلا إلى الوراء ، حضورها في عل ، دائما يا أخى مطلة حتى وإن أقعت ، جاء صاحبي ، قبلنى ، قال إننى كنت رائعا ، عدت إلى مقعدى أجرجر خطاى ، قعدت ، تتلاحق انفاسى ، ثبت منظرى فكأنى لم أتأجج ، وعندما عاودت وجهتى إليها رفرف ماتبقى من قلبى ، تلك أبتسامتها !.

فيما بعد تساءل صاحبي ، لماذا كنت أبدا حزينا ؟ لم أجبه فلم أكن أدري ، بل أننى لم أدركيف انقضت اللحظات التالية ، حتى انصرف القوم ، وخبث أضواء المطعم ، خرجنا إلى صالة الفندق أربعة ، صاحبي ، وشاب من أهل البلاد يتقن لغة لاوس الآسيوية وأنا : ومن قبل ومن بعد هي ، مشت أمامنا ، لها صدى وترجيع ، أمام المصعد التفتت فجأة متسائلة ..

« ستنامون ؟ »

كنت مكدودا ، كنت ألتشظى بحزن غامض ، غتيت ، كنت أرغب في الخروج إلى بخارى ، بخارى الزمن القديم ، غير أن مفازنى موحشة ، لذا ملت إلى الانفراد بشجنى ، يائسا من الظرف والوقت ، أجاب صاحبي ..

« لماذا لا نتم السهر ؟ »

كانه يؤكد اقتراحها ، تضمن تساؤلها اقتراحا بمد السهرة ، واستنكارا خفيا لشروعنا في النوم . حمت ببصرى حولها ، مطرقة ، طالعت منها جانبا لم أقف عليه ، بدت ساهمة ، راغبة في تجنب أمر

ما . أو الابتعاد عن ضجر يخصها . إذن ، في الأمر غصة ، في سماء
الكون غيمة ، في صفاء النبع كدر ، أبدى الشاب متقن اللغة
اللاوسية حماسا ، ولما طال صمتي توجهت إلى مباشرة بالخطاب .
« أطلب إليك أن تجيبني .. » .
ولم يكن بوسعي إلا أن أمتثل وألجئ ! .

قَرَبَى

أدام الله يا أخى جميل لطفك ، وأتم الله خطوسيك كما تشاء
وتبغى ، أقصى عنك الوحشة ، وأدام لك قرى من تهوى ، اعلم
يا أخى أن فى الجماعة رحمة ، وفى الثام الشمل أنس ، وفى الاتصال
دواء وبقاء ، فى الانقطاع عدم ، لاذاقك خالقنا مر الوحدة
وقسوة الانفراد ، تبعثها والليل موغل هنا ، مازال فى بدايته
بمدينى ، هنا زمنى المؤقت ، وهناك أيضا ، أما داخلى فتوقيت
خاص ، لايدرى كنهه أحد ، صعدنا إلى الطابق الثامن ، من
النافذة العريضة التى تتصدر الردهة أقفلت صوب المدينة ، المعالم
مبهمة ، والحدود منطمسة ، المدن لا تفصح عن مكنونها ليلا ، غير
أن ما تأملته خلال جولتنا النهارية سهل لى مرفأً أبجر منه ، حتى
كدت أصغى إلى حداة القوافل الساعية إلى الصين عبر طريق
الحرير ، أو شكت على التقاط ركض خيول الغزاة ، سماع انهيار
الانقاض ، وبقايا المعار تتلملم من جديد ، فكأن دمارا لم يقع ،
وغزوا لم يحدث ، رحت استعيد هدوء المقهى القديم ، والأغصان
المدلالة التى لا يمكن رؤية الواجهات السامقة إلا من خلالها ، قعاد

نفر من القوم فوق المصاطب الخشبية وأمامهم أطباق الزلاية ،
وددت لو شاركتهم ، لو قضيت في الجلسة مدة ، لكن لم يدم
تطلعي ، لمس صاحبي كفى ، قال إن الدقائق العشر انقضت ،
كانت قد طلبت منا الانتظار هذا القدر حتى تنهياً صاحبها التي
تشاركها غرفتها ، مضينا عبر الممر المؤدى . طرقت الباب . بدت ،
تسطع في المدخل الضيق ، ترتدى قميصاً قطنياً شديد الالتصاق
يجسدها ، بنهديها النافرين القاسيين . لم تكن تحيطها بمشد غير أنني
لحت دائرتي حلمتها ضاحكتين من خلال النسيج الرهيف ،
مشرعين ، منها تنبعث ايماءات لا تحصى ، تخلت عن القميص
الصوفى الفضفاض ، كان يحجب ما يبدو منها الآن ، ما أطلعه من
استدارة ملساء لكثفها ، أما خصرها فبلغ من دقته أنه أوشك أن
يكون رمزا لماذا تحفى جمال تضاريسها ؟ أتتعمد وهى مكلفة بمصاحبة
غرباء وما من سابق علاقة بهم أن تموه دفائن كنوزها ؟ إذن .. ماذا
يستر هذا البنطلون القطنى ، أخضر اللون ، رجولى التصميم ؟ لا
إجابة عندى ، فلم أكن قادرا على إدراكها جملة ، على انتظار
الأوان المواتى ، وهذا قد يأتى أو لا يأتى ! على انتظار الزمن المناسب
لجريان الماء صوب جذور النبات ، الماء يا أخى يهب النماء والحياة
للزراع ، ولكن هذا الماء عينه لو غمره فى توقيت مخالف سيقته ،
يذويه ، كل شئ بقدر فلنتذكر ! أدركتني راحة عند ولوجي
الغرفة ، مساحة ضيقة ، فى المواجهة باب يؤدى إلى الشرفة بجوار
المدخل سرير ضيق لا يتسع إلا لشخص واحد متمددا ، فوقه

قعدت ناتاشا زميلتها تلك الليلة ، دقيقة التكوين ، هادئة .
 ابتسامتها كقرفلة ، تومئ ولا تتكلم ، قد تلفظ كلمة أو كلمتين ،
 لكنها طرف أصيل في الصحبة ، بجوارها قعد الشاب النحيل ، من
 يتقن لغة لاوس ، قال إنه تطلع يوما إلى الخريطة ، لفت نظره موقع
 تلك الديار في آسيا . بلد ناء عنه ، بعيد ، شغله ، كيف تبدو
 أرضه وجباله وأنهاره وقبل هذا ناسه ؟ حتى إذا التحق بالجامعة ،
 بمعهد اللغات الأجنبية فرح وسر إذ لقي امكانية دراسة لغة لاوس
 وثقافتها أمضى أعواما أربعة ، بعدها صار يصحب الضيوف
 القادمين من البلد البعيد ، ومما سره وأرضاه سماعه ثنائهم عليه
 لايقانه لغتهم ، هذا المعمارى العجوز قال له صباح اليوم ، أنت
 تتقن لغتنا أفضل منا ! مازال ينتظر الفرصة لشد الرحال إلى
 لاوس .

في الحجرة مقعدان ، أحدهما قريب من الباب المؤدى إلى
 الشرفة وهذا ماركنت إليه . كنت قادرا من خلال الزجاج أن أرى
 الليل البخارى العتيد . أما صاحبي فجلس فوق المقعد المجاور للسريـر
 الثانى ، الممتد بجذاء الجدار ، فوقه تربعت ، فى الركن منصدة
 صغيرة ودفاتر وأوراق ونشرات سياحية ، فوق الجدار صورة لأحد
 أبواب مدرسة مير عرب ، طلاء الجدران وسط بين الأصفر
 والبني ، يمكن القول إنه فى لون ثمر النارج .

أننى أطوف بك . وأصف لك ، ويمكننى المضى ، فأذكر لك
 أدق الموجودات فى تلك الحجرة التى ضمتنى وإياها . كنا خمسة ،

لكنه أول مجلس يجمعنا ، صحيح هذا جمع ، لكن إذا نما الأمر
 واكتمل السعى سنصير اثنين ، ثم واحدا ، لا يدري أحدنا ذاته من
 كينونة صاحبه ، كنا خمسة مظللين بالليل البخارى ثقيل الحضور ،
 كثيفه ، قبل أيام معدودات كان كل منا فى ناحية ، وسعينا شتى ،
 رحت أحوم فى الغرفة مؤجلا الدنو منها بنظري ، لو سددت البصر
 لرسوت ، ولو بدأت الحديث عنها والوصف ، صعب على ما عداها
 هى المركز وسواها توابع ، غير أن ملامحى لم تعكس ما يدور داخل
 تعرف يا أخى أنه لقسوة ما مر بى ، صار عندى مسافة بين الظاهر
 والباطن ، غير أننى مهما أجلت أو تباطأت فصيرى حتما إليها .
 اعلم يا أخى الأعز ، أنها عندما تربعت ، لما صارت فى هذه
 الوضعية آلت إليها الصدارة ، دار حولها المكان والوقت ، صعب
 علىّ يا أخى أن أفصل لك الحديث ، لكننى سأحاول تجسيد لب
 ماجرى وكان ، أنت يا أخى سيد العارفين باللحظات الحميمة ،
 وليالى سهرنا فى المقاهى ، ووصلنا المغيب بالفجر والليل بالنهار ، لم
 تزل ماثلة فى بالى تعرف أننا إذ نستعيد ما قبل بعد الانقضاء نذكره
 فى جملة وليس فى تفصيله . نراه بعد انقضاء الوقت بمعناه وليس
 بنصه ، وبعد توالى المدة فى أثر المعنى يتضاءل المشهد ، تذوى
 التفاصيل ، لا يتبقى إلا الرحيق ، الشذا ، سنا هين ، واهن ، من
 لحظات مرت بنا كان الواحد منا إذا شفق خلالها شهقة لفرط
 انفعاله ، يوشك أن يتلاشى هلكا ، وإنى لمذكرك ببعض مما ألتحت
 به ، فالآتى لما يغيب عنى والتغير يحوم حولى فى ذروة الثبات ،

اللحظة في آنيها عدم محض لذا عند مروري بها أطلعها من بعد
قصي ، فإما استعادة لما أنقضى وإما استحضار لما لم يأت بعد ،
هكذا أرقب الانفصال في وهج الاندماج ، وأرصد العدم في ذروة
الوجود ، وهذا مايقضني ، الثبات المستحيل ، والتغير القاهر .
هكذا أطلت النظر إليها ، ليس بعيني فقط ، إنما بقلبي .
بخواطري ، بشواردي ، بوارداتي ، أجتهد في النفاذ إلى ملامحها .
حتى أستعيدها عند نأبي عنها ، الرحيل حتمي ، لم أكن أحاول
استيعاب ملامحها الحية ، الجميلة ، المتدفقة بالطلاوة ، ولكن
حضورها أعني ، هي في اللحظة ماثلة أمامي ، ولكن اللحظة إلى
انقضاء . بعد انصرافي إلى غرفتي ، كيف ستبدو؟ كيف سأستعيدها؟
سأراها في اليوم التالي ، غدا ، قال قائل يوما ..

لا مرحبا بغد ولا أهلا به إن كان تفريق الأحبة في غد
ولكن شاء القائل أو لم يشأ ، أنا ، أنت ، هذا أو ذاك ، فالغد
آت لاريب ، ومنقض ، هكذا بعد الغد حتى بعد البعد ، إذن ..
كيف سأستعيدها بعد إيابي إلى موطني ؟ بعد أن تباعد القارات
ما بيني وبينها . كيف سأذكر هذه اللحظات عندما يضعف حضورها
في ذهني ، وتصير ملامحها تلك مختلطة بخطوط ولحظات شتى ، هذا
صائر لا محالة ، أليس مصير كل تلاق إلى فراق ؟ والفراق بداية
العدم ، وقد بهت عندي ما ظننته لن يبيد أبدا ، أذكر أيام طفولتي
وصباي يا أخى فأنثني خشية أن اتصدع ، أيام لمتنا تلك استثناء فقد
كنت غيا لا أعى ديبب الأيام ، أو سريان الوقت ، لم أرقب

الآتى ، ولم أنتبه ، حتى إذا شببتنا وتذرينا ، توزعنا على الجهات الشتى ، فصار كل إلى سبيله ، وغاب عن العالم أب ظنته مخلدا . وام وددت يوما لو مت قبلها ، أما شقيقى فغائب هناك وراء المحيط ، له حياته التى لا أعرف عنها شيئا . أبناءه الذين لم أرهم إلا فى الصور ، فىا أخى إصغى إلى محب لك ، لاتدع لحظة تولى دون النظر إلى ولديك . وأطل الجلوس إليهما ، ولا تدع الدنيا تأخذك عنهما ، فغد قريب سيبدأ فيه اغترابهما عنك ، سيصير لكل منهما حياته ، وبدء كل منها يعنى انزواء بعض منك فانتبه ، لا أروم تكديرك يا أخى ، فأنت تعلم مقدار محبتي لإبنك ، وقضائى الوقت معهما مما يهددنى ، ودخولى دارك له ألفة فكأنها دارى . وعلى أية حال لا يكون الثمر إلا بعد تفرق الأغصان وابتعادها عن الجذع ، الثبات والتغير يا أخى لب القضية ولغزها ، فهل سبرى سعيننا ؟ ، اعلم يا أخى أن تعلقى بفن المعمار واتقانى له ، وطوائى بمشارك الأرض ومغاربها للوقوف على شواهد وروائعه ، إنما بدافع مما يلح علىّ فإذا كان الدهر لاراد له ولا مانع ، إذا كان يحزف كل شىء ، فلنحاول إبطاء تأثيره بالمعمار ، بالحجر ، لذا قال القائل قديما ، لو أن الفتى حجر ، ولكنى أعى أيضا أن الحجر مصيره إلى بلى ، فهاذا أنا فاعل ؟ .

فوجئت بها تقول ..

« لماذا تبقى بعيدا ؟ » .

فرحت كطفل لأنها خصتنى ، أولتنى اهتماما ، لمحت شرودى ،

تطلعت إليها شاخصا ، ممتثلا ، وإذا بها تفارق قعدتها ، تنشق في وسط الغرفة ، تتقدم مني ، أقوم واقفا ، تمسك حافتي مقعدي ، تدفعه ، تعتدل ، تفرد طولها البديع ، تشير كملكة تصدر أمرا .. « أنت هنا ! ».

تلتفت إلى صاحبي ، لم ينتظر دعوتها ، تقدم بمقعده ، مبتسما ، موقنا ، أنها راغبة في اللقاء ، في التقارب ، في تداني المصائر ، طوقت سوقها بنظري ، وددت لو ثبتت هذه اللحظة في وعي . بينما ألح عليّ تساؤل ، أين كانت هي في مثل هذه اللحظة ، العام الماضي وأين كنت أنا ؟ ، بل أين كنت لحظة مولدها عام ألف وتسعمائة وثلاثة وستين ؟ . كانت نفرا في القافلة الوافدة من العدم إلى الوجود . ويوما مالا أدرى كنهه الآن . إذ لا تدرى نفس بأي أرض تموت ، عندما أقلع من الوجود إلى العدم . أين ستكون هي ؟ بأي أرض ، بأي محلة ؟ أ ستكون ساعية ؟ أسيطوف أثرى بخلدها ؟ ، كنت في مواجهتها دوارا في فلكها ، وفي الوقت عينه بي حس من شد خفي المصدر ، لا يبين يكاد أن يتزعنى منها ، كنت موزعا بين ما أنا عليه وما سأكونه ، مفقود حاضرا ، مفقود بين لحظتين ، حاضرا فيهما معا ! . اعلم يا أخى أن إخوانا لنا من زمن بعيد قالوا في رسائل لهم ، إن الزمن ينقسم إلى سنوات ، سنة مضت ، وسنة لم تأت بعد ، والسنة تنقسم إلى شهور ، شهر مضى وشهر لم يأت بعد ، وأن الشهر ينقسم إلى أيام ، يوم مضى ، ويوم لم يأت بعد ، وأن الأيام تنقسم إلى ساعات ، ساعة مضت وساعة لم تأت بعد ، والدقائق

منها ما مضى وما لم يأت بعد ، والدقيقة تنقسم إلى ثوان ، ثانية انقضت ، وثانية لم تأت بعد ، إذن أين الزمان ؟ وهكذا مضى منى مقدار ، ومقدار لم يأت بعد ، فأين موقعها هي منى ؟ تعود إلى مرقبها ، إلى موقعها ، إلى الحيز المكاني الذي يشغله وجودها. الحسى ، بدأ فيضها ، لا تستقر على وضع واحد أكثر من دقائق معدودات . تتكلم فتبذل الجهد الأتم لتبدو وكأنها تخاطب كل منا ، تخصه ، تتراحم الجمل والكلمات عندها ، يصبح النطق غير مساعد ، فتتحدث عيناها ، وملاحظها كافة ، تبدو رغبة في بوح ، في اقتراب ، في تلاق ، آملة أن يدرك كل منا ما لم تقله ، الظلال التي يعسر لفظها ، قالت إنها المرة الأولى التي تنزل بخارى ومن قبلها طشقند ، المرة الأولى التي ستمضى فيها إلى سمرقند ، البلاد شاسعة ، ولكم ترغب في رؤيتها ، هاهي في آسيا الوسطى ، ومشروعها القادم إما سيبيريا أو جبال الأورال ، ستفضل القطار . الطائرة تلغى الإحساس بالنقلة ، تود الإقامة ، فعرفة المعار الحقة لن تكتبل. إلا بإدراك البشر. عملها كمرافقة استثنائي ، اختاروها لاتقانها الانجليزية ، بدأت تتعلمها منذ الرابعة ، وهي في الحضنة أنها تدرس الطرز القديمة ، التفتت إلى ، إلى صاحبي ، تعرف الكثير عن العارة الفرعونية ..

« لماذا تسكت ؟ .. »

توقفت فجأة . حادت صوئي ، باغتني بينما كانت تجتاحني على مهل ، وبقدر انبعاث بهجتي لتوجيهها اللفظ إلى بقدر وجلي ،

نعم .. كنت صامتا برغم موارد داخلي ، كنت أمنح منها مددا يشد
أزرى بعد بدء ابتعادي ، سؤلها المفاجئ ذكرني بي ، كنت مثلها في
تدققها هذا ، أيام لم أكن أعبا بساعة هجوع معينة ، لأشكو خللا
لا أقاسى وحدة ، أيام اجتماع الصبح ، واكتمال اللمة ، انقضاء
الليل ونحن سهارى ، يتكشف الخيط الأبيض من الأسود وحواراتنا
لم تنفذ والأمر فيه بقية ، وقد أبدى اقتراحا لم أعد له العدة ، أن
نمضى إلى شارع المعز . نجوس في ظلال المباني العتيقة . أقف بين
الصبح ، أشير إلى الواجبات السامقة ، أوضح الفرق بين مثذنة
قلاوون ، ومثذنة برقوق ، أبدو منفعلا ، حتى قال صاحب لنا
سورى يوما : أنت تضيى حياة على الجدران الرمادية ، حتى لتوشك
الحجارة على النطق ! ، لماذا تسكت ؟ لم أجبها مباشرة فطبت شفيتها
تعجبا وحيرة ، واستمرت ، والدها أستاذ جامعى ، متخصص فى
الاقتصاد ، أما والدتها فطبيبة ، باحثة فى علاج الأورام .

كنت يا أخى أواجهها بتراث مثقل ، وحمول جمّة ، وحزن
غثيت ملازمى طوال السنين الأخيرة ، أورث هذا عيني ظلالا ،
وكسى نظراتى غمامات رمادية ، كان فيضها ينبى بقوة إلى أى حد
أوغلت مبتعدا . عرفت فيها مثل تدققها . هذا ، وددت لو أعرف
كيف ترانى من خلال موروثها وتكوينها ، كيف أبدو عندها ؟ متمنيا
ان تدرك بعضا مما يعتمل داخلى ، وددت لو انفردت بها دقائق ، لو
فجرت بعضى بين يديها ، لكننى لم أرها إلا فى جمع ، هذا صاحبى
يبدو ودودا ، مبتسما ، يتقدمنى بأكثر من عشرين عاما ، عرفته

متفائلا دائما والظرف العاقي غالب ، فياضا ، قادرا في الحال العاقي . وإني لمحدثك عنه يوما إذ خاض انتخابات نقابتنا ، غير عاقي بما يهدده من أخطار . متصديا لذلك المهندس المقاتل المدعوم وقتئذ من كل سلطة ، وأحد رؤوس الفساد ، خطب محرضا ، وخط الكتيبات كاشفا مايجرى في الخفاء ، وذكر الأرقام ، وأتى بالأدلة ، حتى قلت يوما مادام في قومي من هو مثله فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون وعندما زج به في السجن لم يهن صوته ، ربما لأنه مازال في جاعة وصحبة ، ألم أقل لك يا أخى إن في اللمة رحمة ؟ أما قناعاته فلم تدركها الشبهة ، لم يصبها عطن ، ولم ينل منها وهن ، كنت أرقب قدرته على المجارة والتفاعل ، محاولا قدر طاقتي تتبع مايجرى بينهما من حوار . لا أدري مسار الحديث الذى أفضى بها إلى القول بأنها تزوجت في الثامنة عشر ، إذن .. ليس كما أخبرنى الهندى . عندما همس لى محذرا أنها زوجة جديدة ، بما يعنى اشتعال الجذوة ، إذن .. كانت تصرح بما يدفع عنها الشروع أو المحاولة ، قالت إنها لم تر الآثار الفرعونية إلا في الصور ..

« هل رأيت الكرنك ؟ » .

أومأت مبتسما ، فرحا أنها تنطق أمرا يخص قومي ، لكم تود دخول الأهرام . والوقوف بين يدى (أبو الهول) ، وزيارة معبد ادفو قلت إنها قرأت عن ظروف بناء هذا المعبد فأحبته ، بدأ تشييده والحضارة تذوى ، والعقيدة مطاردة ، أتمه القوم ليلا .

« هل زرتة ؟ ».

ينهنى صاحبي ..

« فاليريا تسألك .. » .

أهز رأسي نفيا . تبدى تعجبا ودهشة ، يقول متقن لغة لاوس
الهادئ الصموت :

« فاليريا اسم له أصل عربي .. »

نتطلع مستفسرين ، تشهر أصبعها ..

« يعنى ليلي .. »

أرضي إذ أجد وشيجة قرى بينها وبين ناسي ، طال اقلاع
بصري تجاهها ، بدأ ضوء خفي مختلف يشع عبر وجنتيها ، أيقنت أن
أجدادها الأقدمين لم يتناسلوا إلا لتصل هي إلى وقتي ، وتقرع
مغاليتي بفيضها ، فكأنني ماجئت إلى بلاد ماوراء النهر ، مادنوت
من نهري سيحون وجيحون إلا بحثا عنها ، لاكتشف عين الحياة التي
خلقت منها ، أبدا .. لم تكن هذه نطفة فعلاقة ، لم تكن يوما بين
صلب وترائب . إنما خلقت من ماء الحياة ، منها تتدفق الحيوية ،
غير أنني لم أحتس منها بعد ، مع مضى الليل كنت أتطلع إليها ،
مأخوذا عن كل وجود سواها ، فلو تمثل العبد الذي أوتي من اللدن
علما ، وقتل أحد الموجودين لسبب يعلمه هو لما استفسرت ، لو هدم
الجدار القائم لما سألته ، لو أشعل النار في الأفق لما انتابني فضول هي
فقط في مواجهتي ، أتلمس طرقا إلى راحتها ، أقلع منها إليها ، فهل
يدرك الكوكب انجذاب توابعه إلى فلكه ، كنت أترقرق ، وعناصر

منى تتبدل إلى مالا أعهدده ، حتى إذا بلغت حداً من التوارى
والانطواء داخلي ، وايقنت أنه لا عالم بعد اليوم ، شبت طفرة من
طفراتي ، واندلعت إحدى ومضاتي ، فارقت مقعدى فجأة ،
وحططت بجوارها ، أهدتني نظرة جانبية راضية فأمنت ، احتفظت
بمسافة تمكّني من النظرة الشمولية ، أما هي فغيرت على الفور من
وضعها ، ثنت ساقها تحت وركيها ، فانقلبت في حركة مباغتة لتجتو
على أربع ، بدأ ظهرها رحب النغم ، أما حضورها الحسى فازداد
توقداً ، وما زاد الأمر صعوبة انحسار القميص إلى أعلى ، وتراجع
بنظولها قليلاً ، مما كشف عن وادى ظهرها المؤدى إلى مفرق
ردفيها ، ولجرد أننى تطلعت فكأننى لمست ، دنوت وتنديت وقلقل
هذا حسى ومعناى ، لاحظت أن صاحبي أدرك ما أدركت . ففسد
نظراً نهماً ، لم يخفه ، ضايقنى منه هذا ، وددت لو أنه لم يفعل ،
تمنيت لو غطت ما بدا مع أن ولايتى منعدمة ، إلا أنها لم تركع إلا
لثوان ، فردت جسدها ، فكأنها بعثت من داخله جسداً آخر ،
حركت ذراعيها ، بدت على حافة الرقص ، غير أنها ثنت ساقها
تحت الأخرى ، اتخذت وضعاً بوذاً ، وتحدث الحاضرين أن يأتوا
بمثله ، بادر صاحبي ، بدأ المحاولة لكنه لم يتمها فارتحت ! تقدم
متقن اللاوسية ، إلى حد ما لنجح إلا أنه لم يحتفظ به ، بينما كانت
هى كما هى ، أنا لم أشرع ، أما ناتاشا الصامته فصفت ، عندئذ
أنهت وضعها ، بدأت تغنى ، كان صوتها فتياً ، يتضمن رقّة ،
وشجناً خفياً ، تابعتها متايّلين مع النغم ، وهنا بدا منها تجدد آخر ،

لم يدركها الوهن أبداً ، أما عيناها فازدادتا تألقاً ، أقول لك
يا أخى إن العتمة لو أرخت سدولها لصوت هـى ، مع قربى منها
دام تطلعى ومحاولة تتبعها ، فاصبر علىّ يا أخى لو فصلت
وأطلت ..

فتارة أراها صاعدة ، متجهة إلى منبع ربح الصبا ، وتارة إلى
حر الجنوب ..

مرتفعة إلى أوج . هاوية كشهاب دنا أجله ، وحن احتراقه ،
حتى إذا أوشكت ، شهقت فيعجز الفراغ عن استيعابها ..
تدنو من البروج كلها ، فتارة للبروج النارية ، ومرة للترابية ،
وأخرى للهوائية ، ثم تنعطف إلى المائية ، إلى المتقلبة ، إلى الثابتة ..
المح عندها دوران الفصول ، هـى ربيع ، هـى صيف ، هـى
مطر ، هـى صحو ، أراها متفرقة ، أراها متجمعة ، أحياناً ناضرة ،
وأخرى مولية ، منصرفة ، مقبلة ، مجتمعة ، واقفة ، منبع
ومصب !

قرية حتى أوشك على تنسم ماتجود به مسامها .
بعيدة ، قصية ، مستحيل ادراكها ، فكأنها مصدر كل
اغتراب ، هـى بجوارى ، طفلة تلهو ، واثى ضاحجة ، فوارة ، مثيرة
للکوامن . تطرح أغازا وألعا با ، ثم توغل فى نقاش عويص عن
وجهة المصائر وغايات الأمور الخفية ..

رأيت فيها مراحل فى لحظة ، وأعمارا شتى فى كينونة ، أما
جسدها فمعمار متكامل ، مبسقى ، علوكعبة بانتيون روما ، ورشاقة

تستعصي على اللمس كمنحني مدخل مدرسة السلطان حسن ،
مهيب كايوان كسرى .

« لماذا تنظر في الساعة ؟ » .

اعلم يا أخى . أننى لم أنتبه إلا بعد أن فاجأنى احتجاجها ، أنها
الخصال القديمة ، فى تمام القرب استدعى اكتمال البعد ، وفى ذروة
النشوة افتح عيني لأرصد ردود الفعل على وجهه من اقترن بها ، وألج
جسدى فى جسدها ، فى هذه اللحظات أدركت اقتراب الفجر ،
ولهذا بدون أن أعى تطلعت إلى الساعة ، والهواجس عندى تبدأ مع
اقتراب الفجر ، حيث اضطراب أنفاسى ، وإصغائى إلى أصوات
تصدعى واقتران ذلك بتوقع الموت ، يضطرب قلبى ، وتتداخل
أحوالى ، ولا أدرى لماذا أوقن أن رحيلى سيكون فجرا ، لأن
ميلادى كان فجرا ، أم لأن اقلاع والدى تم فجرا أيضا ؟ فى الفجر
أتوجس خيفة ، وأصغى إلى ديبب اليوم القادم . متسائلا ، هل أنا
بالغته ؟ .

تطلعت إلى صاحبى ، فهم عنى ، أوما ، صاحت محتجة ..
« ستنصرفان ؟ »

لزمت صمتى ، أجب صاحبى ..
« لابد أن تنام ناتاشا ، لابد أن ننام لو ساعة .. »
ثم قال ..

« أماننا غدا سفر وجولة .. »

تلفتت إلى ناتاشا :

« تريدن النوم؟ » .

تجيب البنية بابتسامة ، وبدأ متقن اللاوسية على أهبة الكلام
لكنها صاحت ..
« اسكت أنت .. » .

رق صوتها فجأة ، لمحت فيه رجاء .. قالت ..
« لماذا لانخرج ونقابل النهار معا .. ثم ننام ! .. » .
بحدة التفت إليها ، رأيتها بين شجرتي التوليب ، أكانت تقابل
النهار منفردة وقتئذ ؟ ، غير أن ماهزنى أمر آخر ، هذا مقترحي في
الزمن القديم .

منذ أمد كنت في عشق عظيم ، هاتفت صاحبتى بعد منتصف
الليل . مقترحا أن نلتقى بعد الفجر . أن نرى أول ضوء معا . أبدت
ترددا وخوفا ، وإن أعجبها عرضى ، وفي مرة ثانية التقينا ذات
صباح ، وخطرلى أن نسافر إلى الإسكندرية ، نرى البحر ونرجع في
اليوم نفسه ، قطعنا المسافة متقاربين مبتهجين ، وعندما طالعنا
الموج ، والزرقة ، طربنا ، وتفاهمنا ، وعند المغيب عدنا إلى
مدينتنا ، هذا مقترحي ، وإذا بالدائرة تكتمل ويتلى على مسمعى
ماقلته يوما ، وممن ؟ من هذه الحجرة الأثوية ، وما أنا إلا تابع لأحد
أجرامها ، فإما درت حولها ، وإما انجذبت تجاهها ، وإما أفلت من
أسارها فأهوى إلى هدم ، تبهدى هى الرغبة ، بل بنفس الإيقاع
الذى صدر عنى يوما ، فأتردد ، بل واعتذرت وأسفت لى ، رثيت
على ، أين اتصال الليالى ببعضها ؟ أين سهرنا صحبة فى المقهى

القديم ؟ حتى إذا أذن الفجر ولجنا المسجد القديم ، القريب ، تنسم فراغاته ، وصفاءه ، نخرج منه والنهار مكتمل ، نشيطين ، أما سعينا فشقي . مامن تعب ، مامن وهن ، أين زمن الحرب عندما كنت مجتهداً في الصفوف الأمامية ، تتوالى أيام ثلاثة بدون اغفاءة . ويكفي اغماضة العينين لحظات معدودات فتجدد الجذوة ، أين هذه الأيام أين ؟ أهو السن ؟ لكنني لم أوغل بعد . أهى العلة المفاجئة . لكنها نتيجة وليست سببا ، بعدها صارت أفعالي في الحدود بعد أن كانت في المطلق ، لكن صاحبي هذا به أعطاب شتى ويتأجج حيوية ، أعي أن لحظاتي في الليل البخاري هذا ستكون زادا عندما اتقلب في وحدتي ، وأوغل في غربتي ، كنت أعي يا أخي أن حضورها بقربي سيتوالى عليّ ، زاد نفيس ، عزيز ، فلماذا لا أبقى ؟ لماذا لا أستجيب ! خاصة أنها هي التي تطلب ، هي من يرغب ، ألوعبي أنني مهما بقيت فقصيري إلى انصراف ؟ ألرغبتي في الانفراد ؟ .

« لماذا تريد الانصراف ؟ » .

« لابد من النوم .. »

تقول بضيق .

« سيحيى زمن ننام فيه طويلا .. »

« إني مرهق .. »

قالت :

« كل شخص فينا مرهق .. »

انتهت إلى اتصال الحوار بيني وبينها ، أنا وهى لا غير ، كنت

ياأخي حائرا، إلا أن وقوف صاحبي، ومتقن اللاوسية. وانهاك
ناتاشا البادى حسم الوضع، وعندما آويت إلى مضجعي أيقنت من
اتمام اجتياحها كينونتي، وأن مائراءى لى نائبا صار قريبا. وما
أصغيت إليه ديبيا صار ركضا. غير أنها يا أخي لا تزال قضية،
فكيف أتم الرسالة؟.

إرتقاء الكتيب

.. جياش أنا يا أخى ، وما تاريخى إلا عطاء بدون انتظار .
وفيض بغير حساب . وعما أنا فيه فلم أبغ إلا الإحاطة . أليس ظلما لو
أن جواى لم يلق ظلا ، وهواى لم يحدث صدى ؟ قوى عزمى .
وانجذابى ، وإنى لسارد عليك حوارية دونها عارف قديم ، جاء إلى
بلاد ماوراء النهر، وربما وقعت عيناه على بعض مما رأيته أو توقفت
عنده ، قال الجليل واسمه جلال الدين ..

قال : من بالباب ؟

قلت : عبدك المحب .

قال : فأى شىء لك ؟

قال : أقرئك السلام أيها العظيم .

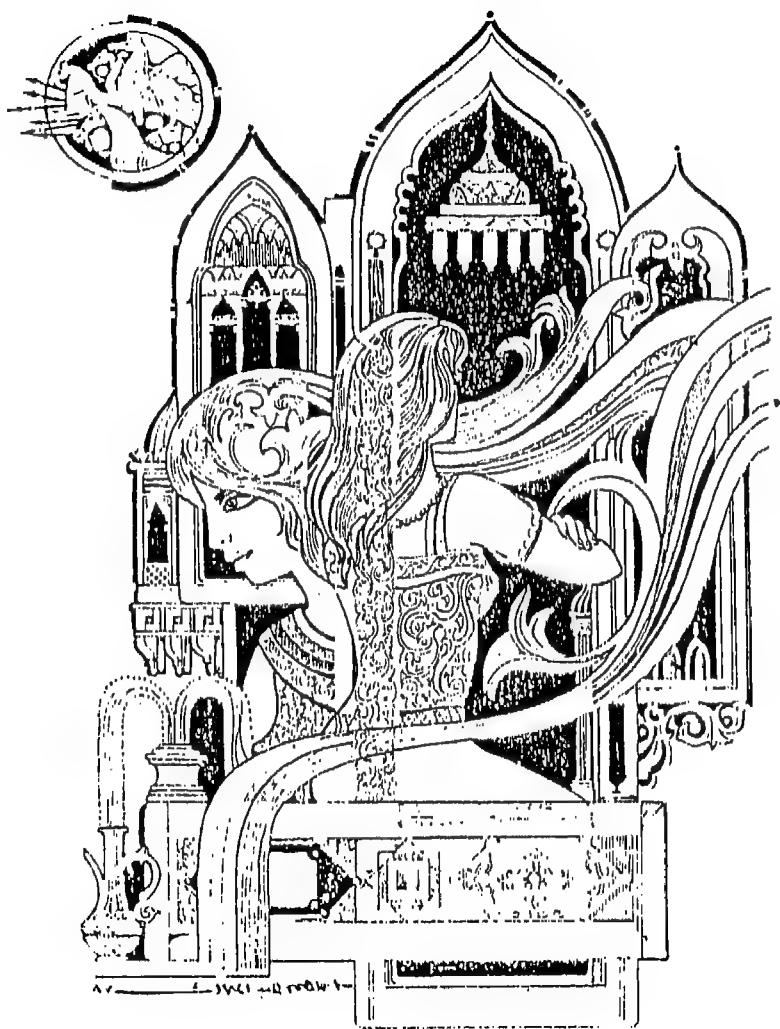
قال : فإلى متى تلاحقنى ؟

قلت : حتى تدعونى ..

قال : إلى متى تجيش ؟

قلت : حتى القيامة .

هذا لب قصدى ، أن يصلها نبأ بما عندى ، اعلم يا أخى أن



من الأشياء مالا يمكن ادراكها أو تصورهما لخفاؤها أو دقتها ، مثل الجزء الذى لا يتجزأ ، والمعنى الأول ، وسبب ورود هذا الخاطر دون ذلك ، وسر الميل إلى هذا الشخص دون غيره ، وجوهر الثمر فى الأكمام واندلاع توقى . وإدراكى أن ما أمر به مآله إلى انقضاء ، ومع ذلك لا أنثنى ، فالوعى عندى أتم ، إن نهاية الشيء فى بدايته ولحظة تهدم البنيان تتحدد عند تشييده ، أما موت الإنسان فيبدأ عند ولادته ، وكما قيل فى المعنى .

ميتا خلقت ، ولم أكن من قبلها .

شيئا يموت ، فمت حيث حييت

اعلم يا أخى أننى وقفت بمفردى مستقبلا نهارى السمرقندى الأول ، اعتدت تبدل المواقيت ، واختلاف الأزمنة . استيقظت وعندى جذوة متقدة ، هى على مقربة ، تشغل حيزا معلوما بقدر ، تتنفس هواء بعضه يعرف طريقه إلى صدرى ، أما وجهها رغب الملامح ، فسيطالعى بعد قليل ، كنت مستوفزا ، متأهبا ، تقدمت من باب الشرفة الزجاجى ، ذرات الماء الدقيقة مغيمة ، مسحتها فانجملت الرؤية ، فى البلاد التى أنزلها أول مرة اعتدت اغلاق الزجاج واسدال الستائر الخفيفة لا غير ، أما الثقيلة فانحيا ، أوتر مقابلة كل عنصر فى الأوض التى اطؤها أول مرة . فما بالك وسمرقند لها عندى فرادة ، وقديم صلة ، وأحلام مبهمة ، وتوقعات غامضة ، واحتمالات ربما تبدو لك مستحيلة ، ان ألقى بعض من سبقونى بقرون ، خبرت هذا غير مرة ، عندما شاركت فى

جمع جاء إلى فاس ليتدارس وسائل الأبقاء عليها ، والقبروان
بتونس الخضراء عندما مضيت لأعين مسجد عقبة السرمدي ،
وعندما استندت يدي إلى جسر خشبي فوق نهر العشار لأتأمل
شناشيل مدينة البصرة ، ومن قبل ومن بعد قاهرتي المعزية التي فرقت
لحظاتي عند نواصيا ، ومداخل مبانيها ، يخيل إلي أحيانا يا أخى أن
مامر بهذه المدن لم ينقض ، لم يندثر ، دائما أتوقع من يحيثني ليأخذ
ييدي ويصحبني إلى غير ذى جهة لألقى الأسواق القديمة ، وحلقات
الدرس فى مدارسها القديمة ، وساحاتها يعبرها المحاربون الخارجون
للملافة العزاة ، وإذ أجول عبر الدروب الضيقة أجهد النفس
للوصول إلى ملمح مما انقضى . لكننى لا ألتى إلا الآنية !.

أشجار ضخمة تتخللها شجيرات التوليب ، تنعم الرؤيا ، توظر
الوجود ، قبة زرقاء سامقة تولد من خلال غبش الضباب ، تحدد
الفراغ ، حدث ببصرى ، ليست بمفردها . قبة أخرى تواجهها ،
فيما بعد أدركت أن القباب هنا تجاوب بعضها ، فلا تدرى الأصل
من الظل ، وأينما وليت وجهك فلا يقع بصرك إلا على نعمة
النقوش تجاوب النقوش ، والرقعة تؤاخي المهابة . أما تدفق الخلق
فلا بد أن يؤدى إما إلى بوابة عتيقة . أو مدرسة ، أو مسجد ، أو
ساحة انطلاق . أو ضريح يرقد فيه جليل ، تلك مدينة سيد
الفاحين ، من طمح إلى امتلاك العالم . تيمور . ولى تعليق أود لو
أفضيت به إليك ، ولكن فى وقت آخر . وليس الآن . فإنى متعجل
لرؤياها ، أليست باعثة جذوتى تلك ، والى طال ترقبى لها زمناً ؟..

بسرعة أدت طقوسى الصباحية . من خلق لحية ، وغسيل أسنان .
وحام دافئ . وترتيب حاجاتى التى سأصحبها فى حقيقتى الصغيرة ،
عند دخولى المطعم كان المكان خلوا منها . لحت صاحى ، أمامه
طبق فيه بيض مقلى ، وكوب ملىء بالشاي ، ورغيف أوزبكي .
بدا صامتا ، إلا أنه محتفظ بظل بشاشة ، وطيف ابتسامة ، وعندما
بدت بنية رقيقة . دقيقة التكوين ، تلملم شعرها فى ضفيرة طويلة .
سخية ، أقدمت تجاهه مستأنسة ، متحمسة ، أضمرت حسدا
وإعجابا لإبدائه الود تجاههن ، وإظهاره جميل اللباقة وإقبالهن
عليه ، وبينما تتعاقب التعبيرات الآمنة على وجهه ، اعتصم
بصمتى ، محتفظا بسمتى ، فما يبدو مغاير للباطن . أظهرن النور
منى ، لم يومئ حتى عند مرورهن بى . وهذا جعل خشيتى تتعاظم ،
ألا يصل من أدور فى مجالها قبس من عندى . لم أكن أرى
ماعداه ، ولا أعبأ بغيرها ، وعندما جاءت سرت ، ولما أوشكت
أن تتجاوزنا ناديتها ، توقفت ، والتفتت . وأومات ، ثم لبت ،
وعندما استقرت بجوارى هدهدنى قربها ، اقتربت من حافة عبرها
الخاص الرائحة القادمة من توالى حضورها ، من أنفاسها ، من
مسامها ، من زمنها ، لم أتمكن منها بعد . غير أنى رحت أحوم
أحاول الطواف والقبض على ما لا يرى ، هذه أنفاسها ، وهذا أريج
شعرها . أما الصبا فقادمة من أغوار روحها ، أثار قربها منى حيننا
غامضا إلى وديان لا تقوم فيها بناية ، ولون أخضر زاهٍ ، نصر
يوحى بالبلل . تبدو مهمومة ، ساهمة ، فكأنها قاست أرقا ، متطلعة

إلى جهة لا ترى أما إمساك يدها بزجاجة الملح الصغيرة وإدارتها
 فتعنى انشغالها بأمر يستعصى على إدراكه ، وكادت في هذه اللحظة
 أوقن أن مابدا منها في ليل بخارى لن يتكرر ، كانت تتجاوزني
 بالنظر ، وكنت ادركها وادرك المدينة معا . إلى داخل الفندق
 الأوروبي التصميم ينفذ حضور المدينة . تبدو بخارى وكأنها اقلعت
 من الدهر ، أما سمرقند فتباهية ، محتالة ، لاتزال في لبه ، بخارى
 لاتتكشف للغريب مرة واحدة ، شيئا فشيئا ، أما سمرقند فتبدو
 بشمولها ، بعمقها منذ اللحظات الأولى ، يسألها صاحبي عن
 المعمارى الهندى وصحبه . قالت إنهم تناولوا إفطارهم مبكرين ،
 وهم يحوسون الطرقات قرب الفندق ، جاء النادل ، وقف منتظرا ،
 اقترحت . عليها الزلاية ، قلت إننى عندما أنزل بلدا أول مرة .
 أحرص على أمرين ، أن أطمع مما يختص به أهله ، وأن أصغى إلى
 موسيقاه . قلت إن موسيقى هذه النواحي حزينة ، شجية ، فيها أنين
 مؤلم عمره قرون . فيه صلصلة الأزمنة المندثرة ، والقيام والأنهار ،
 والقطع ، والائتناف ، والاحساس بالمجد ، قلت إن مالفيت نظرى
 تلك الإيقاعات الأندلسية ، والآهات المصرية ، والأنات
 العراقية ، والوشى الصينى ، قال صاحبي إن تاريخ المنطقة
 وعمر .

هنا قالت إن للمكان خصوصيته المؤثرة ..

ثم مالت تجاهي

ماهى الزلاية ؟

قلت إننى تناولتها فى بخارى أمس ، فطائر محشوة باللحم
المفروم ..
ثم قلت ..

نفس الاسم عندنا . لكننا نطلقه على فطائر حلوة ..
جاءت بدهشة ، قوست حاجيها فبدا جال كامن ، وأصغيت
عبر ملامحها إلى لحن بعيد . تائه منى ، غائب عنى ، لحن مبهم ،
يؤجج حنيناً ويضاعف تطلعات إلى الرحيل ، ويستدعى لحظات
بهجة ، أما إنها ولت . أو لم أعشها ، أو لم يعد لها موضع فى
الذاكرة المثقلة .

مضيت أشرح التقارب بين الأطعمة هنا وهناك . ولم يكن
تدقيقاً إلا حجة للنظر ، ووسيلة للقرب ، تعلم يا أخى أنى أحيانا أبدأ
فلا أكف عن الحديث ، خاصة إذا كنت فى جمع بينه من أحب .
اتجاوز كمونى ، فكأنى ألوذ بالصحبة ، حتى إذا انفردت ارتددت
فأما وجلت ، وإما انفجرت . كانت تصغى ساهمة ، متعبة ، فكأننا
تبادلنا المواقع ، فى ليل بخارى فاضت هى . ولزمت الصمت ، وفى
الصباح السمرقندى هذا أطلت وأصغت هى ، جاء النادل آسيوى
العينين والوجنتين ، وضع الطبق أمامها ، أقدمت حتى اغيب عن
طقوس الخدمة ، ملأت كوب الماء . وقربت طبقاً غير ممتلىء ،
وعندما قضمت قطعة من الفطيرة ازداد شرودها ، مع المضغ بدت
شفتها مضمومتين ، رiantين ، هما حضور الياقوت . ودقة شقائق
النعمان قمعت رغبتى فى الميل والقطف حتى لايلوح على مايشى بأمر

صباقي وحدة توقي ، لا أدري يا أخي كيف مضى الحديث ، لكنني انتهت وصاحبي يقول :

هل سمعت ؟.

كيف لم أصغ ؟ لكن عذري أنني كنت مولياً وجهي شطر إحدى جهاتها ، أحد رواقها ، أبدت الاستفسار . عرفت منه قبسا مما صرحت به وأنا في قلب الغيبة عنها لشدة حضوري قربها . اعلم يا أخي كشف لك الله ماخفي عنك ، وما دق فهمه عليك ، أنها عندما كانت في الثامنة عشر ، أي منذ ست سنوات ، تعرفت بمن هو زوجها الآن ، هل كان مقبلاً على مقربة ؟ ربما ، هل كان على علاقة بوالديها ؟ ربما . المؤكد أنه هام بها . في كل صباح عند اجتيازها عتبة الباب تلقى الأرض مفروشة بالزهور . وعند المدخل الرئيسي تلقاه ، يحيطه الثلج ، ملتحفاً بمعطفه . بغطاء الرأس الثقيل والانتظار والرغبة ، أسابيع طويلة لم ينقطع يوماً ، لم يغب صباحاً ، وعندما اقترب يوم الخامس والعشرين من مايو ، اليوم الذي جاءت فيه إلى الوجود ، وقبيل انتصاف الليل بدقائق خمس ، فوجئوا بطرق هين ، كان يقف بالباب ، حاملاً باقة زهور ، قدم بطاقة خط عليها ما ينبغي بدخائله . ورجاها أن تقبل ساعة دقيقة ، ذهبية الإطار ، كان يحتفل بعيد ميلادها على طريقته كما قال ، أحببت حبه لها . كانت صغيرة ، لكنها بعد اقترانها به ، رأت فيه شاباً جداً . هكذا أفضت متأسية ، متحسرة ، لم تحف أمرها ، صمتت ، كأنها ودث لو أنه أكثر نضجاً ، ولاح منها مابداً معبراً عن نفار . لم أعلق

يا أخى، اخفت أن أبدو غير موفق ، وإن احترمت حبه لها .
ومشروعه فى التعبير ، وحاولت أن أنخيله فلم أقدر ، وددت لو
استفسر عن حبه الآن ، كيف يعبر عنه ، كيف يراها عند
استيقاظها ؟ عند تحركها فى البيت ؟ كيف تمضى أدق لحظاتها
الخصوصية ؟ لماذا تبدو حزينة ؟ ألهذا الحزن علاقة ، أم أنه لأمر
مختلف ؟ بعد أن فرغت سألتها عن يومها ، قالت إنه موزع مابين
المعهد والبيت . مابين دراسة المعمار وشئونها ، إنها تقوم بكل
شئ ، أحيانا تمضى للسباحة ، للرياضة أو للمشى مسافات
طويلة . سألتها عن أصحابها الأقربين ، فقالت إنها لاتثق بأحد ! .
أخى الأعز ..

هذا حوار جرى بيننا ، بينى وبينها لاغير ، فى المسافة الواقعة بين
باب المطعم ، والمدخل الرئيسى للفندق . حوار له منزلة عندى
ومودة . حتى وددت لو دونت ما احاط به ، تاريخ هذه البقعة من
الأرض التى مشينا فوقها ، من لأمس موقع خطانا منذ أن جاء إليها
بشروسى إنس ، وددت لو وصفت ما أحاطنا ، وذكرت كل من
تواجد على مقربة ، وحال الطقس ، وموقع اللحظات من دوران
الفلك . أليس حوارنا الأول على انفراد ، أليس الحوار الذى آتست
فيه ثقة بى ، وخصوصية ، فما صرحت به لنا لم نقله للهندي
وزملائه مع أنها مكلفة بمرافقتهم ، وشرح مايرونه ، وتيسير السبل
لهم ، لكنها شاءت لعلاقتها بهم ألا تتجاوز الإطار ، كما أنها موته ،
فلم تفصح شيئاً عن حياتها ، أما النبرة التى صرخت بها أنها لاتثق

أنها لا تثق بأحد ، فبقدر ماتضمنته من شكوى ، بقدر ما احتوت
 من أسى وبوح إلى أنا ، كنت متأهبا لالتقاط أية إشارة . تلون
 صوت ، أو ارتعاشة واهنة في مخارج الحروف ، أو تسهم نظرة ،
 غير أن سنيي علمتني الحذر . ألا أبالغ ، فلکم أسىء فهمي ، ولكن
 أبدت وصورتي ، وأفصحت وأحبطت . وانت عالم ببعض مامر
 بي .

عندما اجتزت المدخل ، بدت برودة الجو محتملة . إلا أنني
 احتفظت بغطاء رأسي ، الأشجار حول الفندق . وأينا وليت البصر
 تقع عينك على مباني العصور القديمة . الحزف الأزرق غالب ،
 فكان مواد البناء والزخارف . والخط النسبيلق والثلاث وتلك
 الحروف المتداخلة المتصلة وثيقة القربى بأسباب خفية . تمتح من
 زرقة السماء وتنهل ، وإذا كانت بخارى كالخطوط العتيق الذي
 تطوى أوراقه معاني أكثر مما تظهر ، تكظم وتدثر ، فالخصور
 السمرقندی مبسوط للكافة ، للقاصي ، للداني ، كنا ، أنا وهي
 نقف في الباحة منتظرين رفاق الرحلة ، هي على مقربة بجواري ،
 لبشرتها مذاق القشدة التي تغطي اللبن في وعاء فخارى ، تدس
 يديها في جيبي معطفها ، أما الصباح فوقته من هذه الأوقات التي
 تمد في الأجل . وتقصى الهواجم المكدرة للأفتدة ، وتعد بالوصول
 والبشر ، كنا في انتظار العربية التي ستقلنا إلى مدرسة بيبي غانم .
 زوجة تيمور ، إلى مجموعة شاه زند ، الأمير الحى ، بين كتبي مجلد
 يسجلها من كافة زواياها . كان عندي انفعالى الخاص ، لقرب

رؤيتي ووقفتي على ما طالعتة صورا وسطورا ، تحين لحظة أقف فيها
لأقرأ فاتحة الكتاب على شاه زند . قثم بن العباس . ابن عم الرسول
الكريم ، تقول مخطوطات التاريخ أنه استشهد هنا في العام السابع
والخمسین لهجرة حبيبنا وشفيعنا ، لكنهم يوقنون هنا أنه بعد سقوطه
شهيدا . حمل رأسه بين يديه ، وآوى إلى بئر عميقة ، وفي قاع البئر
تبدأ طرق شتى إلى حدائق لا يحيط بها بصر ، ولا يدركها رحيل وإن
طال . وأنه مازال حيا يرزق في إحداها ! .

كان قصدنا مدرسة أولوج بك . ومزارات شتى ، كنا نتأهب
للتوجه إليها مع أنها تلوح من هنا . يحىء العصر العتيق إليك ،
يلحقك أينما كنت في سمرقند ، ولا يدعك تمضى إليه . يوطرك
يتبعك ، يتقدمك ، ويسلك الطريق إلى شعاب الذاكرة والتلايف
التي لا تبين ، أما حضورها الكثيف فأضنى معنى فريدا على هذا
كله ، كان ما أراه من معمار وتكوين في الفائت ، أما هي فإنها الآتى
عينه ، في الضوء السمرقندى رأيت لونا جديدا لخصلات شعرها ،
فإن قلت أنه أسود صدقت ، وإن وصفته بالنحاسى أصبت ، وإن
لحت فيه شقرة فما كذبت ، ينهل من الصفات ، وألوان الطيف .
وسر الشفق ، قلت فتوددت ..

شعرك جميل

واجهتى بجانب وجهها الأيمن

كان أطول

ثم قالت في نبرة أنثوية :

هل يعجبك هكذا ؟

تسألني أنا ؟ هي توجه إليّ يا أخني استفسارا عن رأيي ؟ لا ...
مهلا ، ليس بهذه العجلة . أوشك بهت أن يطويني ، لكنني أفلت
منه بقولي :

إنه رائع .

بدا مني نحن ، في العربة نأت غنى ، حرصت على الجلوس في
الصفوف الخلفية حتى انهل منها . حتى لا تغرب غنى ، عرفت من
صاحبي أننا قبل بدء الجولة سنتجه إلى اجتماع ، حيث تلقى كلمات
ترحيب ومودة ، اخترقنا شارع مكسيم جوركي ، على جانبه
يتداخل القديم بالحديث ، تماس الأزمنة . وتتوالج أحيانا . بعض
الأزياء الأوزبكية منحدره من عصور تعرف يا أخني مدى حيني
إليها وتفكرى بها ، توقفنا أمام مبنى شيد في الأربعينيات ، سارعت
بمفارقة مقعدى حتى اقترب منها ، جاورتها ، التفتت إليّ ، كأنها
تحدث نفسها قالت :

لا أحب هذه الاجتماعات ..

حرت . هل يجوز لى الرد ؟ هل أرجوها البقاء ، أو أعرض
صحبتي ، وددت لو طلبت منها . ألا تغيب غنى ، لكن أجم لسانى
تطلعت إليّ ، كررت .. أضيق بالخطب .

ثم قالت :

لن أذهب .

أطرت مفكرا في مردود اختفائي من الاجتماع ، وصحة هذا

من عدمه ، وعندما تطلعت صوبها لم ألقها ، لا أدري كيف اختفت ، عند دخولي القاعة لمحت الهندى وصحبه ، لم تكن معهم . أصغيت شاردا إلى التصفيق ، إلى الترجمة الفورية ، إلى ملامح الحضور ، إلى الدقائق المتعاقبة ، يهتصرنى سؤال ، أين هى الآن ؟ لماذا نفرت هكذا ؟ لماذا أسفرت عن هذا الجموح ؟ هل بدر منى شيء ؟ لماذا أحمل نفسى الوزر ؟ لكنه دأبى يا أخى . عندما تركت العربية مبتعدة سرى عندى خواء . أين هى ؟ هل تمضى عبر آثار المدينة منفردة ؟ أم أنها بصحبة من أجهله ، وما نفورها إلا حجة لانصرافها ليتنى تخلت عن الخطوة ، ليتنى تبعها ، ليتنى لم أتوقف لأحتسب الأفعال وردودها . ليتنى مشيت فى أثرها ، لا أقرب إلا بالقدر الذى تشاء لو أنها راغبة فى الانفراد ، لا أتكلم إلا إذا سألت : ولا أجاورها إلا إذا أشارت ، أما أن تحتفى هكذا ، أن يمضى وقت لا أراها فيه . أن تبأى عن دائرة بصرى ، المجال ضيق . اغتممت ، عزيت نفسى أنها تتحرك فى سمرقند . ترى القباب ذاتها . وتقف أمام واجهات المدارس عينها . لكم رغبت أن أراها بصحبتها . أن أفسر لها كيفية التلقى عندى ، أن أحدثها عن فرادة الخط العربى المحيط بالأفاريز ، النقوش الخافة ، والحروف المتداخلة ، جبال حرف الألف الذى يبلغ طوله مترين كاملين عند قاعدة قبة بيبى غانم أقرأ لها الآيات القرآنية . وأفسر قدر اجتهدى ماغمض من معانيها فجأة .. تباغتني هواجس مرة .

أحقا هى بمفردها الآن ؟

إذا كانت في صحبة ، فمن ؟
أهو أحد هؤلاء الأجانب ؟ إنهم أقرب إليها ، والطرق التي تبدأ
من عندهم تجاهها أقصر وأوجز ، فالميراث دان . والمزاج متشابه .
أما أنا ففقدت من جهات قصبة ، وماهى إلا طرح مغاير لما عرفته ،
فلماذا أطرق دربا وعرا ، ولماذا ألقى بنفسى فى هجير صعب ؟ .
لكن .. قبل هذا كله ، لماذا انحى بالعتب . باللوم ، وكأن
المواثيق قائمة . والعهود أخذت بيننا ؟ وكأن الود متبادل . وهنا
تذكرت واحدا من أجلهم ، واقتدى بهم ، وأحفظ لهم المكانة ،
أحب فى أول شبابه بنية أوحى إليه بما أوحى . هام بها حتى كاد
يهلك . أفنى من ذاته ما أفنى ، وأبدى من فيضه ما أبدى ، غير أنها
لم تعبأ ، ومضت مقترنة بآخر ، وانقطع بها العهد . أصغيت إلى
محدثى ، كان يستعيد أمرا مضى عليه أربعون عاما وازدادوا سبعا ،
ولكن فى صوته أسينة لا تخفى . لمت البنية ، واتكأت على سيرتها
بالكلام الشديد ، إلا أنه ضحك ضحكة صافية لهاجلجلة .. قال :
وما ذنبها هى ؟ أنا أحببتها ، ولم تحبى .. ما ذنبها ؟ .

استعدت هذا وكدت أضحك ساخرا فى نفسى . لكنى لم أقدر
فالأمر جد . لكننى تساءلت ، لماذا أسىء الظن بها ، ربما رغبت
حقا فى الانفراد ، ألم تكن صباح اليوم ساهمة ، كدت أستفسر من
الهندي إلا أننى أحجمت ، مضينا عبر طرق تستقيم وتنحى ،
صعدنا تلالا ممهدة ، ورأيت سمرقند منبسطة ، قبايا تحاور قباب ،
ومآذن تشير إلى جوهر السماء ، منها المكتمل ، والمقطوش ، أما

المداخل الشاهقة فتحاكي ديوان كسرى ، لو أنها بصحبتى لقلت لها ذلك ، لاحظت قلة نشاطى وهبوطى ، حتى صرت قاب قوسين أو أدنى من وجومى ، فما أسرع الومضة ، وما أقل عمر الشهب ، لذت من ضيق بسمرقند ، أوغلت فى المنمنمات ، فى نقوش الجدران ، فى حركة البشر الذين لم تتبدل أزيائهم منذ قدم سحيق ، فى السوق الكبير ، ورأيت فى قطع الجبن فرادة . وفى الخبز الذى فضلتها عما عداه خارج ديارى ، وعندما وصلنا إلى المرتفع ، حيث مرصد أولوج بك . انقلبت السماء رمادية ، وهبت رياح باردة ، وتوارى إدراكى للبهجة الذى عرفته عند صحوى ، بدأ النفق المؤدى إلى مكان المنظار غريب التكوين ، كأنه يفضى إلى فراغ داخل جوف الأرض ، طفت بالقبة ، والمعرض الحديث المقام بها ، وتأملت صور أبى بكر الخوارزمى ، والشيخ الرئيس ابن سينا ، والبيرونى ، مانسبة الخيال إلى الحقيقة ؟ إلى أى أصول استند الرسام المجهول لى ؟ رأيت رسوم عالم الفلك ، والطبيب ، والمنجم ، ولم أر توقيعاً حتى لمن شادوا هذه العماثر التى تجاوزت هشاشة البقاء ، حتى مدرسة السلطان حسن ، ظل اسم من صممها ونفذها مجهولاً حتى سنوات قريبة ، عندما وجدوا ذكره متوارياً فى الأعلى القصوى ، لماذا يتوارى المعمارىون ، لماذا تبقى أسماء البنائين مجهولة ؟ يحمل الهرم اسم خوfoo ، تحمل المدرسة الشاهقة اسم زوجة تيمور ؟ لكن أنى لنا معرفة من انهار عليهم الردم فجأة ، أو من تعلقوا على ارتفاعات شاهقة لتشيت لون ، أو خط حرف ؟

هيروغليفيا كان يا أخى أو عربيا ، لكم وددت يا صاحبي أن اسمعها
انطباعاى ، أن ألفظ قربها مايجول بخاطرى ، أن أقف إلى جوارها
لحظة تجول نظرى عبر الأرض الممتدة ، المتموجة ، متسائلا عن
البقعة المجهولة التى يرقد فيها الشيخ الرئيسى ؟ أين مثواه : كيف
تاهت عنه الذاكرة التى احتفظت بهذه العماثر ، مابق منها وما اندثر
أين عاش هنا ؟ أين أبدى المجاهدة . أين حصل العلم ؟ لو ألم بحالى
وماصرت إليه فى دياره بعدما عرفته من جذوة العشق لنظم رسالة
مطولة فى نأى الحبيب عن مجال البصر . أو لخصص فصلا عن
التلاقى التفرق فى « الشفاء » والمنطق ! أين سعى ؟ أين ولى وجهه
فى أى موضع كانت داره التى كابد فيها السهر ؟ ، أما البيرونى
فكدت مع استغراقى أن استدل على الجهة التى سلكها عندما قصد
الهند . تميت لو أنها بصحبتى يا أخى لأطلعها على معرفتى بهؤلاء لو
أنها قربى وأنا أحرق فى ملامح الساعين حولى ، ربما انحدر هذا من
أحدهم ، لاهو يدرى ، ولا غيره ، أيتعقب الإنسان جذوره
البعيدة ؟ إذن أين كان جدى منذ ألف حول ، وأين كان جدها فى
ذات الحقة ؟ حاولت أن أوغل فى النقوش ، أن ألوذ بالتصاميم
بالخطوط المتداخلة ، كنت أبتعث لحظات نائية ، وأقابل كل منها
بظل مما أرى ، أو مثذنة ، أو مدخل مؤد مما أجوز ، حاولت رؤية
ما لا يمكن رؤيته تخفيفا لما أحدثه عندى ابتعادها المفاجئ . وفى
إحدى الزوايا الظليلة انتحيت ركنا قصيا ، وبصوت مهموس ،
مسموع عاتبتها .

فاليريا .. أين أنت ؟

وعندما اقترب منظم الجولة مني ، من صاحبي ، واقترح علينا تدبير عربة تمضي بنا إلى ضاحية خرتنك ، حيث ضريح الإمام البخارى . أبدى صاحبي حرارة وحسن استقبال للاقتراح ، وطلب مجيء المعمارى الجزائرى معنا ، أمر يسره ، صرنا أربعة . جاء معنا دليل أوزبكي ، ترجلنا ، جزنا السور الخارجى ، والممر المرصع بالفسيفساء الملونة وأشجار الحديقة . والباب المؤدى مباشرة . حتى إذا وقفت أمام الشاهد الرخامى ، وبسطت راحتين . قرأت الفاتحة ، ثم قرأت مادون من تاريخ ميلاد ، واخبار رحيل صوب الآفاق النائية لتحصيل العلم ، تمتت أحمل للراقد الجليل تحية كل حبيب وقريب لم يمكنه المجيء إلى تلك الأصقاع ، ومنهم بالطبع أنت يا أخى الأعز ، فارقت الضريح والمسجد المجاور منه هذا ، فهذا موضع لن أجيء إليه مرة أخرى ، وهذا كرم جليل لن أقف بقربه ثانية . أما رطوبة المسجد ، وظلاله ، ورائحة السجاد القديم والجير الذى طليت به الجدران ، فقد بلل هذا جفاف روحى ، وأثار عندى شجنا غامضا .

تعرف يا أخى حديثى عن لحظات دقاق لا تروح من الحضرة القلبية أو الذهنية ، لا يغيب غيرها ، لن أنسى من هذه الطلة ، تلك الوقفة ، الزيارة ، أمورا عديدة ، فن ذلك لوان ، وعبرة ، وحركة أما اللوان ، فاعلم أنهما الأبيض والأخضر ، بياض رخام الضريح والفراغ المصنى ، ونضرة الحديقة المحيطة ، ولون الخشب

المظلل لوحدة القبر ، أما العبارة فتنقوشة على الشاهد ، أذكر لك نصها :

« .. وجاب البلاد ، ونزل الأمصار ، حتى بلغ شيوخه ألفا وزيادة .. » .

وقد لاقت عند زميلنا المعمارى الجزائرى نفس القبول وجميل التلقى ، حتى طلبت منه ترديدها بصوت عال ، كما شاء أن أقرأها له ، والجزائرى هذا صاحب غربة ورفيق سفر ، إلا أن ماقربنى منه هواه الزائد بالمعمار القديم . وعشقه لفاس ، وتلمسان ، وقسنطينة ، ورغبته فى زيارة القاهرة العتيقة ، قلت له إنه إذا جاء يوما فساكون دليله . وقال لى إذا جئت الجزائر فسيكون عيني الفاحصتين . وكان مابدا منه ، وما ظهر منى لب المودة .

أما الحركة التى لن تروح من عندى أبدا . فمجىء شيخ أوزبكى ، جبهته خضراء . وحزام خصره حريرى عريض . منقوش ، وعمامته بيضاء ، أما لحيته فكثية ، جثا على مقربة . ولامس ركبتيه بيديه ، ثم بدأ تلاوة آيات بينات من سورة يس ، وتلك سورة مباركة اعتدت ترديدها عند مئوى أمى وأبى ، رحمهما الله رحمة واسعة ! فارقت ضريح الإمام ، وكان الطريق الخارجى مزدحما ، وقوم قادمين ، ساعين للزيارة ، ونهر زارافشان متدفقا بمياهه . ومزارع قطن شاسعة ، أما داخلى فزاهر بفيض ، وتوق ، وشدة فقد ، لو أنها بالصحبة ! .

عللت النفس يا أخى برؤيتها فى المزرعة الجماعية ، إذ تجددت

المصدر ، وسلام مبين ، أما السماء فلاحت أبدية ، منبسطة ، فيها
أصداء القباب السمرقندية الزرقاء ، كذا شهوق المداخل المؤدية ،
ونمات الضوء المنبعثة من عينيها . ورواء بشرتها . وشموخ نظرتها
الجانبية ، كنت متحسرا على كل لحظة تمضي وهي بعيدة عن
النظر ، على وشك أن أضع يدي على سريان عبرها خلال زهر
الليمون ، وظلال الأشجار ، وترقق أجنحة الفراشات المحومة ،
جلنا عبر المزروعات المغطاة ، وقفت عند قنوات المياه ، ولأمر
خفي ، حننت إلى الإسكندرية ، ورسوخ قلعة قايتباي ، ومداميكها
الحجرية المواجهة لصخب الموج وعنف هبوب الرياح وفوق الأبراج
حراس أشداء ، وأصداء صيحات متجاوبة ، ورجال منقطعون عن
الأهل والولد ، مرابطون تحسبا لهجمة مفاجئة تجيء عبر الفضاء
البحري الذي يفغر فاه ، فكرت في مدينة سلا ، هناك أقصى
الغرب ، وشاطئ المحيط ، وحصن قديم انقطع فيه مجاهدون
أوائل ، وشرفة حجرية كل ماتبقى من حصن زال معظمه عند
شاطئ تونس ، وردت على أعمدة مرمية غارقة تحت سطح بحر
ناء ، ومنحنى في سمرقند وقعدة لرجلين يرقبان مغيب الشمس إيدانا
بتناول افطارهما الرمضاني . في فؤادي تتشعب طرق ، ومن غياهب
ذاكرتي تفد قوافل الصور . كذا حننت إلى نغم متمهل ، يسرى
باعثا أحزاني جلت مع الصحب . وتذوقنا شرائح الليمون المرشوشة
بذرات السكر وقطوف العنب ، متجعد الحبات بعد تمام النضج ،

والتفاتتى فيها طموح لتجاوز الأطر المكانية ، وعندما لاح رفاق الرحلة من بعيد ركض بعضى فى أثر بعض ، غير أننى حدث ببصرى ، إما لأننى رغبت فى تأجيل رؤيتها شأن من يؤجل المتعة ، وإما خشية ألا تكون بصحبهم فأوثر البقاء فى مجال التوقع زمنا ، مرجئا القطع . وبتر اليقين ، غير أن خواء سرى عندى ، لو أنها بينهم لتوالت داخلى إشارات حتى وإن لم ألحها ، وعندما دنوا وصافحوا ، كمت استفسارى ، تصدع وقتى ، وحجت عنى موجودات شتى من مجال الرؤية ، آثرت الانفراد ، حتى إذا انتهت الزيارة وليت وجهى شطر الطريق وغبت فى الظنون . عند المنحنى المؤدى إلى مدرسة بيبي غانم ، فوجئت بصاحبي يقف ، يدق زجاج النافذة ..

«فاليريا .. فاليريا ..» .

يلتفت إلىَّ ، وكأنه يعى قضيتى . يشير إلى الطريق ..

«هاهى ..» .

أتابع إشارته ، يتدفق القوم أمام الواجهة الشاهقة ، على مرأى من النصب الفسيفسائى للزمن ، أين هى ؟ أين ؟ تمضى السيارة ، لم أرها ، مطامح شتى ، وأودية عتيقة ، معاطف ، أغطية رأس ، طفل يحمل زهوراً ، فتارين صغيرة . الطريق منحدر ، آثار المدينة تحدد مسارات الطرق ، الأشجار باسقة ، لكن ما من تولىب ، لا يبدو إلا معها ، ولا يلوح إلا بقربها ، يلتفت صاحبي إلىَّ . قال مؤكداً ..

« كانت تمشى هنا .. »

تساءلت ..

« بمفردها ؟ »

مط شفتيه .

« لا أدري .. لمحتها هي .. »

هل رآها بصحبة أحدهم ويخفى عني ؟ من أين قدمت ، وإلى أين ؟ وكيف أمضت الساعات الماضية ؟ توقفت العربية أمام مدخل السوق ، باعة الجبن الحلوم . والسجق ، والخبز الأوزبكي ، منتفخ الحواف ، أخمص الوسط ، ناصع الباطن ، قيل لنا إن الوقت المتاح نصف ساعة ، أبطأت الخطى ، مضى صاحبي مع الجرائري ، آثرت البقاء والمشى بمفردي ، سأقطع الشارع حتى نهايته ، ثم أعبر لأعود من الرصيف المقابل ، لو أنى أراها فجأة ، سأتوقف أمامها . أبها شكوى فقدى لها ، وأرجوها ألا تغيب مرة أخرى . فالمتاح من الزمن غير مساعد . توزع بصرى مابين الواجهات والمارة ، مررت على ثياب مزرکشة ، واشترت عطرا محليا ذا فرادة . وقلبت أغطية رأس ملونة مبرصعة ، منمنمة ، وحافظات جلدية عليها صور محاررين قدامى ، وحيوانات ، وطيور كواسر ، رأيت امرأة جميلة . متصلة الحاجبين ، تماسمت نظراتها بنظراتي ، ومضت ومضيت ، استنفدت الوقت المحدد ، أسرع الخطى ، محرك العربية دائر ، حتى فى المطعم لم أرها ، ولما سألت ناتاشا الهادئة قالت إنها لم ترها ، وأنها لم تصحبهم إلى الجامعة صباح

اليوم . قالت إنها تفضل الانزواء والوحدة ، وإنها مضت تجول بمفردها في المدينة ، قلت : لكننا سنرحل بعد ساعة إلى طشقند . قالت : لا بد أنها تحسب وقتها . قلت : أتعرف هي معاد الرحيل ؟ قالت : طبعاً ..

ابتسمت ناتاشا . لاح في عينيها معنى ، قالت :
« كانت فاليريا روح السهرة أول أمس .. » .
طالعتها بعينين أسيانتين ، تابعت هي ..
« أنها تفيض حيوية » .

أومات مؤكدا ماقالته ، غير غافل عن إشارات أهدتها بملامحها . اعلم يا أخى أن العصر والبرد القارس وأصدقاء المدينة الغامضة على ، ناعت ولفتنى بوحدة ، أما افتقادها يوما بأكمله فضعاف الخواء والوحشة ، صرت أتعجل الرحيل ، الوصول إلى المطار، هناك سأراها بالقطع ، غير أن الأمر لم يأت بما توقعته يا أخى الكريم . فعندما دنا الوقت ، وتحركت السيارة صوب المطار ، كانت غيبتها مستمرة ، أيعنى ذلك تخلفها هنا ؟ أضلت طريقها أو أصابها مكروه ، أو التقت بنفر من قومها . شغلوها ورتبوا لها ترتيبا مغائرا . رحت اخاطبها على البعد : لم يصلك ماعندى ولم تلمحى مايربى لم تدركى ، ولو أنت اطلعت على قبس لما ضيعت يوما كاملا لم أرك ، لم ألحك فيه . أوليت ظهري لسمرقند ، عاصمة تيمور ، لأرض استعرض فوقها جيوشه قبل خروجه إلى العالم غازيا ، مرة إلى الشام ، ومرة إلى الهند ، وآخر الخرجات إلى

الصين . أوليت ظهري لطوابير الغنائم ، للسبايا الجميلات . لأولوج بك الفلكي . للخوارزمي ، لشوى ابن سينا المجهول ، ليال متوالية تطلعت فيها عيون متفحصة للسموات العلا ، لقرية مندثرة في وادي بعيد هنا آوى إليها يوما بئاء أجهله ، أو رسام لا أعرفه ، أو قاصد سبيل متغرب عن موطنه ، كان الغروب يدنو ، والمطار ممتدا ، فيه شيء من لانهاية الصحراء ، وأبدية الوقت ، ومما تعجبت له عند مطالعتي تصميم المدينة ، أن هذا المطار أقيم في نفس موضع الباب الشمالى الذى كان يخرج منه القاصدون بخارى ، فهذا موضع مفارقة ، ومكان رحيل دائم ، اعلم يا صاحبي أن سمرقند البالية كان لها أربعة أبواب ، كل منها يقابل جهة أصلية ، فالشرقي يؤدي إلى الصين البعيدة ، والغربي سمي بباب النوبهار ولم أعرف معنى ذلك ، أما باب كاش ، أو الباب الكبير ، فكان يؤدي إلى موطن تيمور الأصيلي إلى مسقط رأسه ، وهذا مكان الرابع حيث وقفت قلقا . أسفا . أرقب طلعتها أو قدومها ، سألت صاحبي عما يظنه سببا لغيابها . أبدى دهشة ، قال إنها محيرة ، صمت لحظات ثم قال ، إنها تحب الاهتمام بها ، أن تكون محورا ، ومركزا ، وقبلة للأنظار ، ولا بد أنها ستظهر في اللحظة الأخيرة بعد أن يكون الجميع شغلوا بها .

هذا التفسير يا أخى لم يرضنى ، لم يعجبني ، إنها محور بدون أن تقصد ، وبثورة بغير تعمد ، لحت الهندى وصحبه ، سارعت ، استفسرت منه ضاحكا - كأنى لا أبالى ، كأن سؤالى عرضى - عن

مرافقتهم الجميلة ، فقال إنه لم يرها منذ صباح اليوم . ابتعدت رحت وجئت ، عدت أقول لصاحبي إن ما أقدمت عليه يعد استهتارا ، هل لديها تكاليف العودة إلى موسكو البعيدة ؟ كرر صاحبي ، إنها محيرة ، انصرفت عنه ، قلت لئاتاشا ، يبدو أن سمرقند أعجبت فاليريا . مطت شفيتها ، سألتها ، ألم تكن بصحبها في الحجرة ؟ ألم ترها عندما حزمت حقيبتها ؟ قالت إنها لم تكن في الغرفة . أما حاجاتها فكانت مبعثرة ، جاء صاحبي ، افضى إلى بنأ . أرسلوا عربة للبحث عنها ..

قلت :

« لا أدري كيف ستقضى الأيام هنا بمفردها ؟ » .

ردد ..

« إنها غريبة » .

ثم ابتسم ، ثم قال ..

« تبدو مهموما لغيابها . »

جاوبته باختصار .

« إن الأمر جد ! » .

مع اكتمال المغيب . أذاب الغسق ورمادية الشتاء والرياح الباردة حدود المطار المادية ، فبدأ متصلا بالغيب ، بالمجهول ، وفي الأعلى تتغير السماء السمرقندية بسرعة في مواجهة الليل المقبل ، اعلم يا أخي أنني عندما أفارق أرضا رأيته أول مرة أتساءل . هل سأراها مرة أخرى ؟. تذكر يا أخي رحيلنا عن فاس ، عندما ضمنتنا

صحبة معا ، أتذكر كيف كنت أفارق الطرقات والزنقات والساحات الصغيرة وقنوات المياه الجارية ، كذا واجهات البيوت ، كنت أترجع بظهري ، حتى كدت أصطدم غير مرة بالعابرين ، لم أكن أريد مفارقة الزوايا ، والعطوف ، والنواصي التي أحبيت ، هذا حالي أيضا في لحظاتي السمرقندية الأخيرة ، وإن مازج أمرى هنا انشغالي بتلك البنية ، أضاف ذلك وجدا على وجدى ، كانت الثواني تنسل ، والقوم وقوف ، لا يبدو عليهم اهتمام بغياها ، أنه انتظارهم ، عادى ، لا ترقب فيه ولا قلق ، عدا رجل رافقنا من طشقند . كان مسئولنا عن الرحلة ، بدا مشغولا لغياها ولكن من وجهة غير وجهتي ، ومن منظور يخالف منظوري ، فجأة سرت حركة بين الجمع ، امسك كل منهم حقيبة اليد . أو ماسيصحبه إلى الطائرة ، لم أدر من أشار ببدء الحركة ، غير أن جنديا أسرع الخطى ، وفتح البوابة الحديدية الصغيرة التي تتخلل السور ، بسط ذراعه فوقها ، كأنه يشير إلينا : تقدموا . كان علينا ان نعبّر واحدا بعد الآخر ، بدأ اتجاهنا عبر المطار يتخذ هيئة طابور غير منتظم ، ابطأت الخطى ، بل توقفت لحظات حتى أن صاحبي تطلع إلى مستفسرا ، مازحا قال .

« هل قررت البقاء هنا ؟ » .

لوانك مكانه يا أخى ، لو بصحبتى ، لسألتنى بنفس اللهجة ، فالملكث بمفردى يبدو مستحيلا ، في رحلة جرى ترتيب مراحلها وفقا لنظام محكم ، أما المسافة بين سمرقند وعاصمة البلاد فشاسعة غير

أنك يا أخى تعرفنى أكثر ، إذ بدأ الحاطر عندى ، وتصاعد . أن
أبقى حتى ألقاها ، ألا أرحل بدونها ، ولم يبق إلا انسحابى خفية ،
أو إعلانهم بقرارى ، كيف أمضى وهى ليست فى مجال البصر ،
أرقبها ، وأتملاها ، وأتمناها ، سأرجع إلى المدينة ، إلى الفندق ،
وعندما ألتقى بها ، ستبدر الدهشة فى ذرات ضوئها ، عندئذ لا
أدرى ، هل سأبقى صامتا لثوان ، أم أشرح لها ما فعلت ؟ هل
سيصلها جواى واتقادى لحظتها ؟ عندئذ أقول لها إن تخلى سيثير
اهتمامهم ، فأنا غريب ، محدود المدة ، وسيدون لى من تسهيلات
العودة مالن تلقاه هى ، لذا آثرت التخلف والبحث عنها خشية أن
تصعب عودتها ..

لكن !

تعرف يا أخى أنه عند ورود كلمة لكن على الحاطر تبطئ
مسارات الأمور ، تتمهل النوايا ، ويلوح مفترق . ماذا سيقولون ،
وكيف يفسرون بقائى من أجلها : أنا من لم أجهر بعد بالقول أمامها
ولم أصرح . كيف أخطر بالبقاء فى مدينة أجهل لغة أهلها ، الأمر
أصعب وأعقد ، هكذا رحت وجئت ، درت على وترددت
داخلى ، أقلعت صوب جهاتى ، فما يكاد شطر منى يولى القصد
تجاهى ، حتى يرتد شطر ثان مبتعدا عنى ، وما أن أوشك على الرسو
عند ساحل ذاتى حتى يهتز قارى . يختل . فأناى وأقترب . أميل
وأعتدل ، لم أحسم ، وهكذا مضيت مساقا صوب الطائفة . آخر
القاصدين ، وأتوس الراحلين ، متناقل ، كاره مسارى ، إذن

سنقضى ليلتنا المقبلة فى طشقند بدونها ، لن تصبحنا إلى العاصمة فكأن السعى فى مفازة شجواء إلى نهاية الاستيحاش ، قبل أن ألج جوف الطائرة تلفت ، هناك عند البوابة يقف جنديان ، عند مدخل البوابة يتطلعان صوب نقطة ما . تواريت فى المقعد الضيق غير عابئ بتطلع إحداهن إلى مبتسمة وكأنها تدرك ماى ساخرة ، لم أقعد بجوار أحد . وضعت حقيقتى الصغيرة بجوارى ، من يدرى ، ربما جاءت فى اللحظة الأخيرة ، عند دخولها ترى المقعد الشاغر فأجاورها مدة ساعتين . تطلعت عبر النافذة الرمادية ، غبش رمادى متزايد . أصداء المدينة التى لاتلوح لناظرى ، القرية ، البعيدة الآن .

لكن .. ماذا ؟

هل تحف لهفة المشتاق ؟ هل ينزاح الثقل ؟ لقيت نفسى يا أخى يردد بصوت هامس ، عاتب ، متدفق النظر إليها حيث لاحت ، وبانت ..

لماذا فاليريا ؟ لماذا ، لماذا .

أعاتبها ، أهدهدها ، ضاما إلى مايشع منها لهفة وخوفا إثر العثور عليها فى اللحظات الأولى ، رءوم . حان ، متهدج ، غير مصدق ، فأحرق أطول ، ثم أقربها ، مستعصا عن النظر بالتقريب ، بالضم ، بينما عتأى المنطوق لم ينقطع . تعرف يا صاحبي أن الإنسان إذا انفرد بنفسه يرتفع صوته أحيانا . أما مغنياً أو محدثاً ، ربما بدافع خفى ، قديم من الأزمنة المندثرة . إذ يلقي نفسه وحيدا فى

غابة ، أو قفر ، محدقة به أخطار شتى ، وافظعها المجهول منها ، عندئذ يصرخ ليؤنس فردانيته ، ولحظة انبثاق رؤيتها كنت الأشد وحدة ، ظهر تكوينها فأنست منه أمنا ، أبرزت ورقة للجنديين . صاحب شخص كان يقف تحت الطائرة . نجتاز المسافة ، لا تعدو إنما تتدفق ، مويجات ، زخات قطر ، رشقات مصوبة تجاهي ، أما دخولها فاندفاعة وتفجر نبع ، خطواتها الواحدة نقلتها إلى الأمام ، تجاوزتني لم تر المقعد الشاغر بجواري ، صاحب الجمع كلهم وناداهم بعضهم باسمها ، واستفسر آخرون عن غيابها ، وأبدى البعض اهتماما مفاجئا . عداى ! لزمت السكينة ، وقفت تحلح معطفها ، تروض نفار شعرها ، ولم تكن إلا مبتسمة ، ولم تكن إلا مشعة ، مغمورة بالضوء ، بالألوان ، جلست فغابت عن مجال عيني ، ولبت وجهي شطر السور ، البوابة التي لم تعد موضع ترقبي الآن ، السيارة التي مضينا بها في الصباح إلى ضريح الإمام البخاري ، ترى إلى أى مقعد جلست ، ليها مست المكان الذي شغلته ، فنلتني حيث لم نلتق ، قربت وجهي من زجاج النافذة ، أقرب جريان الأرض . لحظة انفصالنا عنها ، هذه سمرقند من عل ، لم أدر هذه البيوت ، وإلى أى مسجد تنتمى هذه القبة القائمة فوق التل البعيد ؟ بدأ سحب ، تزايدت كثافته ، لم أعد ألمح شيئا . غربت سمرقند في الليل والغيوم ، كنت راضيا ، مرضيا كأني ارتحت من لهاث أعقب ركضا . لم أطلع تجاهها ، لم أحد بنظري ، فما أعجب وما أغرب ! . إلا أنني عند وصولنا الفندق ، بعد اتجاهانا إلى الغرف ،

بعد نزولي إلى المطعم ، بعد دخولها ، قمت إليها ، دعوتها فلبت ،
قلت لها إننا غدا سنكون في موسكو ، ينفض الإطار ، وبعد أيام
ثلاثة سافارق إلى موطنى . ومن يدري . قد لا أعود إلى هذه الديار
مرة أخرى ، ما أريده دقائق كي أحدثها ، بمعزل ، بمنأى ، أننى
أدعوها إلى غرفتى .

توقفت متهدجا ، إنها ساهمة ، مدت أصبعها ..

نتحدث !

بدا لى صوتها يحمل قليلا من الموافقة ، وكثيرا من النذر ..

قلت :

بالطبع ..

قالت :

ولماذا لا نتحدث فى غرفتى ؟

قلت :

فى أى مكان تشائين ..

ثم قلت :

قصدى الانفراد .

قالت :

إذن .. سأنتظرك بعد صعودى ..

هنا صارت دقائق قلبى دوارج ، حتى أنهكت بما يجرى داخلى

مع أنى وثاب ، فاغفر لى يا أخى الأعز إسرافى فى أمرى ..



تـوق

.. اعلم يا أنخى الحبيب ، الصاحب ، القريب ، إن أصعب اللحظات ما يتم فيها التأهب ، حين يللم المرء شتاته . يحاول أن يحىء من هنا وهناك بما يمكن أن يعينه ويقويه . الأشق انتظار الفعل ، وليس الفعل ذاته ، اعلم أن أوعر مامربى فى مرات سجنى توقع الضرب والأذى ، وليس التعذيب عينه ، أثقل ماعرفته أثناء القتال مايسبق بدء الهجوم وليس الاشتباك . أصعب مراحل المرض الجهل به ، مامن مرة قاربت فيها من أحب إلا وانتابتنى رهبة . وأكثر مايكون المحبوب وجلا عند مضيه إلى لقاء ، إذ ربما يتم الفناء مع اللقاء ، فيذهل عما حوله ، هذا ماجربته ، فما البال إذا كان من خصالى أيضا عيش اللحظة إما قبل حلوها . وإما بعد انقضائها إما فى السابق وإما فى اللاحق ، لك إذن تجيل حالى . وما صرت إليه قبل المضى ، أحقا سأنفرد بها ؟ هل ألقى نفسى فى القربى بهذه السرعة ؟ كيف سأبدأ ؟ بأى جمل افتتح حديثى ؟ ماذا أقول ؟ بل الأدهى ، ماذا أريد ؟ كوكبها أسرنى ، هذا حق .

أدور فى فلکها ؟

هذا حق .

هاهى الفرصة تتاح الآن لأفسر ، وربما أعقب ذلك أمر ، هل أرمى إلى إعلان حقيقة وهى وجذبى ؟ نعم . لكن أيكفى هذا ؟ كلا ثم كلا !

إذن .. هل أبغى الفناء ؟ الاتحاد ؟ لا أدرى ، هل أعى ضيق المدة ، ألن أفارق هذه الديار كلها بعد ساعات معدودات ؟ فإلام أرمى ؟ أى وصل أبغى ؟ وصل عابر ؟ هذا لا يطابق كنه حالى إذن .. مالى أتعلق بالصعب ؟ مالى أحاول فتح باب لن أقدر على رده ؟ مالى أوغل فى درب قد لا استدل على عودتى منه ؟ رحت أقلب أمرى ، حتى مرت بى لحظات ندمت فيها على سعى ، مع تمام وعيى أن الأمر ليس بيدى منه شيء ، فألى أية غاية ؟ تعرف يا صاحبى أننى عندما أكون فى جمع أحتمى بهم منى ، واتحصن منهم دفعا لى . وقدما قالت لى محبوبة همت بها قدرا ، أنت تتكلم حتى لا تتكلم . لحظتها فوجئت ، أدركت أنها كشفت بعض سرى ، وما أسطره لك يا أخى لم يطلع عليه أحد ، ولا أقرب الخلق منى ، فهل أنا بحاجة لتنبهك إلى الكتمان والصون ؟ آمل أنك ملبٍ ! .

للمت شظاياى . تناولت لوحة صغيرة ، فيروزية اللون ، عليها نقش عتيق ، حملتها من أزقة قاهرى العتيقة ، أبدعها عجوز تجاوز التسعين . آخر جيل المهرة فى النقش والترميم ، نوافذ الجص ، والأفاريز ، والعنابت المؤدية ، حملتها معى خلال اسفار عدة ، أقسمت ألا أقدمها إلا لمن أرى أنه يستحق ، لوحة بسيطة ، خلو

من أى صدف أو حجر ثمين ، لكن لنقشها رقة وترجيح وإيحاء ،
 آن لها الانتقال عنى . تناولتها حذرا من حقبة يدى التى لاتفارقنى ،
 جلت بنظرى فى الحجره ، الحقيبة ، الكتب ، السرير الذى لم أرقد
 فوقه بعد ، رفعت سماعة الهاتف ، وعندما جاءنى صوتها بدأ نائيا
 محاطا بغلالة من ظلال ، استعدت مرأى شجرتى التوليب ، والغبشة
 الصباحية . رواحها ومجيئها ، منذ لحظة سريانى صوبها ..
 تعال .. أنا فى انتظارك ..

اكتمل تأهبي ، بدأ شروعى ، كل ما أريده عند المثل
 أمامها ، عند الانفراد ، أن أوصل إليها بعضا مما عندى ، أما أن
 أرحل بهذا التفجر كله فألى جانب أنه حمل ثقيل ، فلاشك أنك
 توافقنى على ما فى الأمر من ظلم . أن أشعرتجاهها بهذا الدفق كله ، ثم
 امضى بدون أن تدرك فأمر فيه عبث بالناموس ، مررت أمام
 الأبواب ، تتوالى الأرقام ، وعندما وقفت أخيرا لم أطرق مباشرة ،
 إنما تطلعت ، قديما قبل إن مشاهدة المحبوب هى أعز مطلوب .
 وعندها يجب التزام آداب بعينها . منها الثبات وعدم الالتفات
 والخشوع والافتناع والخضوع ، وتنسم رائحة المحبوب ، لكن من هو
 مثلى ، هل يثبت ؟ من قام بشيابه الحريق كيف يسكن ؟ النار التهاب
 ومملكة ، فلا بد من الحركة . من هدا باللقاء قلقة فما هو بعاشق ،
 كيف يصح والعشق كله ظهور ، مددت يدى مرتين ولكنى
 انثيت . ثم حزمت أمرى ، وعندما فتحت بدت كنصب أبدى
 للجمال ، للحقيقة الناصعة ، لم تكن مرتدية إلا قيصا أزرق يتيح

لعنقها الانسيابي الظهور ، ولصدرها البروز والمناداة . فى اللحظات الأولى أدركتها فى جملتها ، ولم يهدأ قلبي ، قعدت بعد أن أشارت إليّ ، لا أدري والله يا أخى ماقلت ، ترتج ذاكرتي وتغيم عليّ ، تعرف تبدد الكلمات الأولى ، حتى ماتفوه به إلى أقرب الخلق منا تصببه الذاكرة وتطمسه ، أعي الآن اللحظة التى بسطت فيها يدي . تطلعت إليها بكل ما امتد ورائي من أزمنة قدر لي أن أعيشها . وأمكنه ارتدتها أو أقت بها ، وأشواق طافت ، وأمورى المبهمة ، عندما لمست أصابعي أصابعها ، عندما تلامس مشارف وجودنا الحسى ، قبضت يديها ، وعبرهما تدفق مني إليها حنو ورفق وطلب ومودة ورغبة فى القرى ، رفعت إليها ابتهاج عيني ، لم أستتر ، لم أتوار ، لم أبذل الكد لأظهر ما ابطن ، كنت أذهب للتأهب للاندلاع ، كنت أرتد بشرا سويا ، استعيد زمن زهوى ونضارتي ، والله يا أخى ، يا صاحب الأيام الصعبة ، لم أكن راغباً إلا فى الحومان عند أطرافها . والتحليق بأقصى أفقها ، أطلع إلى موارد لا غير مع علمي ويقيني أن فيها ربي ، غير أنني رصدت تبديلاً فى ملامحها ، كأنها ستنهني إلى أمر ، بينما لاح عندها ماخيل إلى أنه ندم ، أو رغبة فى تدارك أمفات أوانه ، ماذا فى الأمر ؟ ألم تقل أن زميلتها ستسهر حتى الفجر ، وربما قضت الليلة بغرفة أخرى ، ألم تؤكد أنها بمفردها ، لكن .. أتدري ما أفضت به إليّ ، أتدري ؟ قالت إن صاحبي سيجيء بعد دقائق ، أنها دعت .. لا . سأورد لك ماقالته بالضبط أثناء تراجع قائمتها قليلا ..

لكن صاحبك قادم !

بدت لهجتها محيرة ، كأني المسئول عن دعوته ، هل أدركت أخيراً ، في هذه اللحظات . دقة وصفاء وعنفوان ماعندى ؟ كنت يا أخى أعول على ذكائها البادى ، على أمور خفية قربتها منى ، متمهلاً سحبت أصابعى ، أطرقت حزينا ، خائبا ، راغبا فى النأى . فى التوارى ، فى التوحد ، فى الايغال مبتعداً ، على مهل تصاعد غضب ، أن تأبى هذا حقها ، أن ترفض الانفراد بى هذا مشروع . لكن أن تسخر . فهذا صعب على . وعرتحملة ، ليتنى لم أجاورها ، ليتنى بقيت فى مدارى ، لا أحاول الاقتراب ، لذت بى ، بصمتى ، تعرف يا أخى أننى لطول ما عانيت . لشدة ماقاسيت ، صرت أتقن اخفاء ماعندى ، لا أدع ملمحاً يتسرب إلى قسمائى ، لكم تمنيت بسط نفسى أمامها كل البسط ، أن أفض مغاليق شتى ، كان الأمر ثقيلاً . ويبدو أنها لمحت بوجهى مانم عن طويتى ، ماجعلها تنظر إلىّ هذا النظر الطويل . وتعاقبت علىّ الأحوال ، فمن خيبة أمل ، إلى خجل غامض ، إلى رغبة فى الرثاء ، فى البكاء ، حدث بنظري ، وليت عنها ، هذا مرفأ غير صالح لرسوى ، هذا محط غير آمن فلاأتجنبه ، هذا سراب فلاأنتبه . هذا ظل كاذب فلاأحذر ، فلاأمضى فى هجبرى المقدر ، شرعت فى التهيؤ للانصراف ، هنا طرق صاحبى الباب ، بدا غير مفاجأ بوجودى ، ما أصعب الوقت علىّ وأنا أحاول اسدال الحجب حتى لايتسرب من أمرى خبر ، ترى .. هل أخبرته بجوارى معها ، برغبتي

فى الانفراد؟ ترى .. هل يضمّر سخرية منى ؟ لم يغلب علىّ
 خجلى ، بل ربما قصصت عليه ما جرى غدا أو بعد غد ، أما
 ونكسى مازال فى بدايته ، وأنا مازلت بعد أعبر تلك اللحظات
 الفاصلة بين وقوع الجرح وبدء ديبب الألم . فلم أكن قادرا على
 الجلوس ، أو المنادمة ، تحركت هى ، فتحت حقيبة زرقاء ،
 أخرجت حلوى سمرقندية . قالت إنها لم ترها إلا فى المدينة لم يكن
 هناك أطباق ، إلا أنها تناولت طبقين صغيرين ، يتوسط كل منهما
 كوب زجاجى ، وضعتهما فوق المنضدة . لم يفتنى أنها قربتها منى ،
 وأن حركتها فى مجملها متجهة نحوى ، فى غمار غمى لاحظت ذلك .
 كنت قد تراجعت عن الانصراف ، لا أخفيك يا أخى أننى لم أشأ
 تركها معا ، بمفردهما ، ستقول إنها الغيرة ، أقول يا أخى لو أنك
 أنت ثالثنا لما تركتكما معا ، ستقول هذا عن شدة تعلقى ، أقول وهل
 أعلنت صور تعلقى أو هواى ؟. المهم يا أخى أننى اقترحت دعوة
 صاحبنا الجزائرى ، وأخرى كانت تظهر وداً لصاحبى ، بعد قليل
 جاء ، صرنا خمسة ، أصبحنا جمعا ، وهكذا احتमित بهم
 منهم ، أمكننى التوارى إلى حين ، أثناء الحديث التفتت إلىّ
 مرات ، مرة سألتنى عن صمتى ، ومرة قطبت عينيها متسائلة ، ومرة
 أبسّمت بود وترحاب ، تحاشيت تسديد النظر إليها . أو الدخول
 معها مباشرة فى محاوره . حتى إذا ما انقضى وقت قدرت أنه مناسب
 وقفت معلنا تعبى ، ورغبتى فى الماضى ، خاصة وأن سفر الغد
 طويل . غير أنها وقفت مقبلة الحاجبين ، مشدودة الجبين ، طلبت

منى أن أبقي ، أبديت ابتسامة لا يجب رؤيتها من يعرفني . سدت
طريقي ، أشارت بيدها صوبى ، اكتست ملاحظتها جدية ، قالت
بلهجة تحاكي فيها الخطاب الرسمى ..
« أمرك أن تبقى .. »

اتبعت ذلك بابتسامة . ولم يغب عني المعنى البعيد في إيقاع
صوتها ، بحق مالى عليك أمرك أن تبقى ، كما انتهت إلى دلالتها .
تطلعت إلى الصبح ، لبيت ، عدت إلى مكاني ، لم أدرك كيف
مضى الوقت ، ولكنني عاودت ابداء رغبتى في الانصراف ، لم تتن
عزمتى في هذه المرة نظراتها الملوثة ، ولم يلح على أحد ، بل إن
الجزائري قام واقفا ، قال إنه يود الذهاب أيضا ، عندئذ تأهب
الجمع كله . كنت أول الخارجين ، وعند اجتيازى الباب أدت
بصرى ، لمحها واقفة ، متطلعة نحوى ، وحيدة تماما ، عند المصعد
مال على صاحبي ..

« أقترح عليك العودة » .

بوغت . تطلعت إليه متسائلا ..

« عند وصولك غرفتك . اطلبها في الهاتف ، و .. »

قلت باختصار

« لا أرغب »

« يا أخى ، ألم تلاحظ في عينيها اهتمامها بك ، نظراتها إليك .. »

نظرت إليه وكأننى بعيد ..

« أننى متعب .. »

بدا متعجبا ، مضيت إلى غرفتي ، مرتد النوايا ، خاسئ
الخطي ، راغبا في الانزواء . قعدت عند حافة الفراش منحنيا .
ممسكا اللوحة الجصية ، لم تتح لي فرصة حتى أقدمها ، لا أرغب
شهر هداياي في حضور الآخرين ، أزحت ثيابي . اطفأت .
المصباح الحاد نافذ الضوء ، رددت : آخر ليلة في آسيا الوسطى .
ثم فكرت : في أي اتجاه أسير صوب مدينتي ؟ إلى دروبي التي
أعرفها . في اتجاه هذا الجدار أم ذاك ؟ لو مددت خطا مستقيما من
نقطة رقادي هذه ، بدايته هنا ومنتهاه في القاهرة ، كم يبلغ طوله ؟
هذه الأرض المقام فوقها الفندق ، من وطئها ؟ هل داستها خيول
جنكيز خان ؟ جيوش تيمور ، أم كانت محطا لقوافل تجار الحرير .
لماذا تبدو السماء هنا أرحب ، محسوس انبساطها حتى وان لم تقع
عليها العينان ، أما في بخارى فمحيطه بالمدينة . تلفها من كل جهة ،
ولا تنبسط فوقها ، أما في سمرقند فتتخللها الأعمدة والمداخل
والقباب والنقوش والآيات البينات . استعدت انحدار طريق
سمرقندي ، وشرفة مقهى بخارى ساعة الصباح ، وقبة توشك على
الاتحاد بالفراغ الصاعد لزرقة ألوانها ، تقلبت مرة ذات اليمين ،
ومرة إلى الشمال ، ثم قمت قاعداً في فراشي ..
أنا في الطابق السادس . هي في العاشر . غرفتي أول الممر ،
غرفتها آخر الممر من الجهة الأخرى ، عبثا حاولت طرحها ، اقصاءها
عني ، عبثا لجؤتي إلى ماتصورت أنه تداعيات ما قبل النوم ، بدت
خواطري وبوداهي كالحظات سكون الماء قبل غليانه ، اهانتني ،

سخرت مني ، كيف قبلت البقاء بعد ذلك ؟ تطلعت إلى الهاتف ،
 أيمكن أن أصغى إلى صوتها في هذه اللحظات ، ألا تزال بمفردها أم
 عاد إليها أحدهم ؟ إني مرهق ، متعب ، مكدود ، راحل غدا ،
 ولأني منكسر ، معكوس الخاطر يا صاحبي فقد انتابني رثاء لذاتي ،
 ورغبة في نعي أحوالي . وفي مثل هذه اللحظات يتذكر الإنسان
 سعيه في أوقات ضعفه . لم أكن تعباً بإرهاق يوم أو يومين ، ليس بتأثير
 خيبة . لكن بما أحمله ، بترائي كله ، أستعيد رقادى أثر مرضى منذ
 عامين ، تذكر عندما عدتني مرارا ، أوقات الظهيرة بجرها القاسى ،
 ووحدها الجافة التي مرت على . وأصوات الطريق الذي لم أكن
 قادراً على الخروج إليه . كدت أدمع عندما استعدت وهنى الذي
 كان ، جئت إلى أرقى بلحظة ليلية نائية بعد عودتى من سهرة
 قضيناها معا توقفي فجأة أثناء سيرى ، إدراكى أن حديثنا عما كان
 يفوق حوارنا عما هو آت ، أيام نائيات ظننا يوما أنها الغاية . أنها لن
 تبيد أبدا ، انقضت ، ولت ، إذا بالزمن يسرع فلا نجلس إلا
 لنستعيدها . أورثنى هذا شجى ، ذلك ما لم تعرفه تلك البنية عنى ،
 ما لم تعقله أن وجودها تجاهى كان يستثير عزمنا ظننت أنه ذوى ،
 وقدرة على البوح طال خمودها ، لكن أنى لها ذلك ولم أخاطبها إلا
 في جمع أنى لها الاطلاع على موروثى وهى لم تتجاوز العشرين إلا
 بسنوات أربع . وتلك نقطة يتطلع فيها المرء إلى الغد ، لا يخشى
 الطوارق ، الدواهم ، يسألنى بعض من لا يعرفنى ، لماذا تبدو مسناً
 وأنت لم تتجاوز الأربعين إلا بسنوات قلائل ؟ . معهم الحق يا أخى

إذ أنهم لا يعلمون ، لا يعلمون أننا مررنا بمراحل تبدو متقاربة لكنها متباعدة . ولم يكن الحمل يخصنا ، ولكننا لم نلقه ، ولم نتخلص منه ، إذ أنه متصل بقومنا ، وجمعنا . بعض مما عرفناه كان ممكنا أن يهدد جمعا ، لو أفضت في هذا ، لن أكف ولكنني أضرب لك مثلا بعصر انقلاب الأحوال . وانعكاس القيم . الذى عشناه وعصف بنا في سبعينيات زماننا ، وأننى لحدثك يوما عن رسالة ضمنتها بعضا مما جرى لمن عرفتهم وشيعتها إلى صاحب لى آثار الغربة . وسميتها رسالة البصائر فى المصائر ، لذا أقصر الآن ، ولا أفصل ! . إنما طال تلميحى لأنبك إلى ماعنته البنية بانبثاقها المباغت ، بحضورها الوهاج ، بحيويتها ، فكأنى قصدها لأنهل منها ترياقا يجدد مابلى . وينهى عبوسى الذى طال . لو أنها صدتنى لانتثيت ، لكنها .. سخرت . أليس ما أته عين السخرية ؟ بلى ، شيئا فشيئا إنقد دماغى . لمت ذاتى ، كيف أقذف بنفسى تجاه من أجهله . هل بهرنى جماها ؟ كيف سأطيق الرحلة غدا وهى على مقربة ، فى نفس الطائفة ، لن أتطلع إليها . لن أتجه إلى أى موضع تقف فيه ، وإذا أقبلت بحوى وخاطبتنى ، فسأبدى لها الجفوة ، سأسمعها مايقوله محب بعد انقلاب العشق إلى بغض . مع أن المحبة لم تمتد بيننا ، وما جرى هبوب من عندى تجاهها .

أغمض عيني ، العتمة تن فى الخارج ، والنوم قصى . أما قلبي فيعدو جاهدا فى أثرى ، أحمله مالا يطيق ، أخشى ما أخشاه أن يتعثر ، أن يكبو ، أمامى سفر طويل ، إنى بحاجة إلى الراحة ، فلماذا

لا اجمع ، لماذا لا أغفو ، هل نامت هي مباشرة بعد انصرافنا ، أم أنها تتقلب بين ذراعى رجل من قومها ، استدعته بعد ذهابنا ، ميراثه ميراثها ، وما احتاج مراحل متوالية لأشرحه ، لأوصله لها ، يدركه هو في لحظة . قت من رقادى ، متطلعا إلى رمادية الضوء ، إلى طلائع النهار الآسوى البكر ، ما أنأى المسافة بين مضجعى وبينى ، وما أقربها ، تطلعت إلى الصوان المقابل ، إلى دورق المياه ، إلى الراديو الصغير . وحقيقتى التى لم أخرج محتوياتها ، أما اللوحة الجلصية فعلى مقربة منى . كان من المفروض أن تكون بين حاجاتها الآن ، أطرقت ، تساءلت ، لماذا أقسو عليها ؟ ماذنها ؟ أنها لاتعرفنى ، وما أنا إلا فرد فى جمع ، ذات جال مثلها لابد أن القصاد طرقوا السبل إليها ، وأسمعوها من الكلمات أرقها . ألم تقل لى عندما أظهرت البادرة الأولى ..

« .. وكيف أصدقك؟؟ .. »

غير أننى اتكلت على احساسها الأنثوى ، فما عندى تجاهها إلا صدق النوايا . بدأ لى أن مكنونى سيصل إليها ، لكننى كنت أعول على لى . أو أطلب العون منى ، فما أضيق الساحة وأصعب الأمر ، هكذا اكتمل نهار جديد من عمر الدنيا وأنا موزع . مفرق ، متحامل عليها ، مبرر لها ، قاسٍ ومشفق معا ، أتطلع إلى الفراغ . إلى النهار الجديد ، لو أغفونصف ساعة ، غير أن جسمى كلما اقترب ولامس المضجع . نأت الخواطر وفرت ، هكذا فارقت الفراش وقفت متطلعا عبر زجاج الشرفة . مشتعلا بنصبى ، محاطا بوحدة

صماء ، انحنى ببصرى متمهلاً على الحديقة الأمامية ، أقصد شجرتى التوليب ، أوشك على ذرف وجدى ، من هنا كان البدء ، بينهما سعت ، فى مجالها اكتشفت مدارها ، كنت يا أخى أصغى إلى الصمت السارى عندما وقع ما استهدف دفق قلبى ، إذ رن جرس الهاتف فجأة ، رنيناً حاداً ، متصلاً ، ماذا .. هى ؟ أتدعونى ؟ إذن .. هل مرت بما مررت به ؟ ألفها الأرق كما لفنى ، أندعونى لنقابل النهار معاً كما كنت أشرع فى الزمن القديم ؟ قطعت خطوتين إلى الهاتف ، وعلى ملاهى مشروع عتاب ، لا أدرى كيف سيكون جوابى ، أمسكت على أنفاسى ، غير أننى فوجئت برجل يتكلم لغة لا أعرفها ، مجهولة عندى تماماً ، لم أفهم ، قلت بالعربية متجهها .. لا أعرف ، لا أعرف ..

من هذا ؟ من أية جهة ؟ ماذا يريد ؟ كيف فى هذه الساعة ؟ خطأ أم قصد ؟ أم محاولة للتأكد من وجودى فى الغرفة ؟ لا أدرى .. نفضت هذا عنى ، تطلعت إلى ساعتى ، الثانية والرابع فى القاهرة الآن ، أضفت أربع ساعات ، اجتزت الحد الفاصل بين ذروة إرهاق وبين بدء تعب جديد ، يحوى القديم ، وليت وجهى تجاه النهار القادم ، فت إمكانية القدرة على النوم بمدى سحيق ، واجهت الضوء المتزايد ، نضاحاً بضرى ، بأساى ، منطويا على ما استقر عندى من نوى ، كنت مستسلماً لتوالى مجيء النهار الجديد . فأننا يا أخى حسير ! ،

مواقع الشَّهْب

تحاشيتها !

في الصلاة المتوهجة بضوء آسوى انتحيت ركنا قصيا ،
مغمضا عيني المجهدتين بين لحظة وأخرى منصتا إلى وتأثر تعبي ،
داخلي ظلال من شجر توليب ، وقباب ، وفضاءات لا نهائية ،
ومسارب بعيدة لمياه منحدرة ، عما قليل سأجوز الفراغ ، تلك
أرض ربما لن أطأها مرة أخرى . وهذه ديار لن أجوس خلالها ،
مقامي بعيد ، دنا صاحبي حاورني ، تجنبت الخوض أو التلميح ،
وعرف هو فالترزم ، قال إن اجهادي واضح ، قلت إنني أرق
بعض الوقت ، لم أبج له يا أنخي بسهادي ، لم أقل له أنني
ماغفوت منذ صباح أمس ، وإن ما أخشاه ألا يتم قلبي رحيله
معي ، لكم أثقلت عليه ، لكم حملته مالا يطيق . ساعات طوال
من الرحيل . وهاهو إقلاع وشيك ، أتأهب لإقلاع مغاير ، من
شرق إلى غرب ، من أرض إلى أرض ، من مواقيت إلى أخرى ،
طاويا خيبة أمل ، ونكوص بعد اقدام ، سرى في الجمع تأهب ،
فوق أرض المطار اصطف عدد من الصغيرات ، ملاحمهن

الآسيوية جميلة بادية ، يحملن باقات زهور حمراء ، ملت مقبلا
الطفلة ، حدقت فى عينها الواسعتين ، المقبلتين ، هاتان لن أقابلها
مرة أخرى . لن أطالع نظراتها ، تلك لحظة لقاء عابرة ، يعقبها
تفرق ، كتماس الشهب ، تعرف عنى يا أخى طول تأملى لهذه
اللحظات العابرة ، ولعلك محتفظ بعد برسالى إليك عن
الاغتراب واللقيا ، لعلك تذكر وصفى لتلك المدينة الحدودية
الهادئة . المدثرة بالأشجار والنبات ، وخطوى فوق الأرض المبلطة
بالحجر ، عندما ظهرت شابة ، واثقة ، متزنة الخطى ، قاصدة ! .
اجتازتنى ومضت مبتعدة مخلفة حضورها القوى فى الفراغ ، خلف
ظهورها العابر عندى هياما غامضا واستفسارات شتى ، عرفت
مثل هذه اللحظات كثيرا فلن أثقل عليك . إلا أننى أقول عن
حنوى بالنظر تجاه تلك البنية الصغيرة التى ستسعى بأرض وأسمى
بأخرى ، وربما لن نلتقى أبدا ، كما لم نلتق قط ، صافحت القوم ،
وعند اتجاهى صوب الطائرة الضخمة ، الجاثمة ، لمحتها ، تمضى
بين القوم فارهة علامة دالة مدلة ، تتناول باقات الزهور من
زميلاتنا ، نجتمعها . تضحك تبدو لاهية . فهل لى أن ألوم ؟ هل
لى أن أعتب ؟ هاهى تمد الخطى غير عابثة بالالتفات حتى ،
تخطى البعض ، ترتقى السلم وثبا ، احرص على تباطؤ . ما أوده
أن ألوذ بمقعد منفرد ، أن أجاور من أجهله ، اغفو ولو ساعة ،
اخفف من كددى ، المقاعد الأمامية مشغولة ألحها ، عند نهاية
المقصورة إلى اليمين ، تقف ولم تقعد بعد ، حدث إلى المعر

الأيسر ، تقدمت غاضبا بصري ، متحاشيا النظر إلى الفراغ الذى تشغله . وددت سرعة التوارى ، التدثر بوحدى ، غير أن ماجرى يا أخى عجب . فوجئت بيدها تمتد لتمسك معصمى تقدمت صوبى أثناء أشاحتى إلى الجهة الأخرى ، لم تنادنى ، لم تلفظ اسمى ، إنما قصدتنى ، أشارت ، ولم يكن بوسعى إلا التلية متوثب الروح ، خافق القلب ، صامت ، لا نطق ولا قول ، إنما كلى بهت وغية عن حضورى ، رأيت معطفها مطويا . مسندا إلى المقعد الشاغر حتى لا يقربه غبرى ، أما مارقرق وقتى وذرى تعبى فرأى الزهور ، الباقات التى جمعتها من زميلاتها ، ثبتتها فى ظهري المقعدين الأماميين ، وزعتها بالتساوى ، فى تنسيق بديع ، مرة أخرى بسطت يدها مشيرة إلى الزهور كأنها تقول بالصمت : هذا من أجلك .

توقفت ، جازت إلى المقعد المجاور للنافذة ، وعندما استوت ، ولت وجهها متطلعة إلى مالا أدريه ، أسلمتنى يدها ، فتخللت أصابعها حتى امتزج احساسى باحساسها ، فلم أعد أدري أصابعى من أصابعها حتى لو شئت تحريك أصبع لعجزت ارادتى عن تحديدها ، كنت أستوى على مهل فى حضور جديد .

اعلم يا أخى أن الأمر لم يكن بيدى منه قدر ولو يسيرا ، لبيت والرضى متمكن منى ، فكأن غضبى وحزنى لم يكونا إلا عتابا دقيقا لم ألفظه ، أو تمهيدا لما صرت إليه . ما إن جاورتها صامتا ، ساكنا ، متشاغلا بالنظر إلى الزهور ، متأملا فى مغزى صفها لها

ودلالة الأمر حتى ولى ما عانيته ، فكأن أرقا لم يقضنى وسهادا لم يطرقنى ، بل إننى لمت نفسى لسوء ظنى ، وتحاملى عليها . لا أظنك تعد هذا ضعفا منى ، حتى وإن بدا لك هذا فلا ضير على ولا خجل أبديه ، تلك لحظات انتفت فيها الحسابات ، حرام فيها القول بما يجب الاقدام عليه ، وما ينبغى تجنبه ، فى حضرتها لا اتقنع ولا استعير . ولا استعين بما ليس عندى . هذا حالى أبسطه كما هو . نقيا صافيا كقطرات الغيث قبل ملاسة اليايسة ، ربما تود الإحاطة بما جرى وكان ، أنى مذكرك ، منبهك إلى أن مثل هذا صعب تدوينه مفصلا بعد انقضائه ، فما يقال يفنى عندما يتلقاه الآخر ، وعند استعادته أما النظرة فتكتسى المعنى وتنفذ مندبجة بذات المتلقى ، العجيب أن تعي تدرى ، وارهاق قلبى ولى ، منها سرى دفق إلى أوصالى ، وشيئا فشيئا لم يعد إلانا ، فكأن القوم لا يحيطون بنا ، علقت بابتسامتها الثرية ، وخضعت لألق عينها ، أما جبينها فبدا رحبا ، لا نهائيا ، وقامت بينى وبين غازتها صلة ، اثنتيت إلى توالى ابتساماتها ، تلك المضمومة منها ، أو التى تحاول للممتها قبل انفلاتة ربما لا تدرك عقباها ، أو الهادئة المصاحبة لاياماتها أما هذه التى تضىء ملامحها كلها بضى خفى المصدر ، فلها شأن يغينى .

الأمر شاسع يا أخى ، يا أعز صاحب ، وربما أفردت يوما رسالة أنبئك فيها بالابتسامات وتعاقبها ، والالتفاتات وتنوعها ، وانفعالاتها الشتى ، والاندفاعات المفاجئة ، والبوح ، والزمزوم وما

حفلى ، والوقت الذى جرفنى وطوانى واحال ماكان منى إلى دوارس ، غواير ، فأدرك يا أخى مامر بى ، وفق الله أيامك . ماذا جرى منها ومنى خلال هذه الساعات الخمس ، ونحن مابين الثرى والثريا؟ أقول بعضا من كل ، فى البدء تناولت سلة فيها لفائف ، أرتنى ما اشترته فهذا عطر من أعشاب ، أتت به من بخارى ، وهذا كتاب عن مساجد سمرقند ، عجبت ، كيف فاتنى شراؤه؟ ضحكك ، أخرجت رغيها أوزبكيا ، قالت إن اسمه « نون » فاستعدت مذاق الخبز الذى ظننت أننى غير ملاقيه أبدا ، ضحكك مرة أخرى ، قدمت زيتونا وعنبا . قالت إنها لاتتناول فى العادة عشاءها ، لكنها أحيانا تجوع فى الليل . فتؤثر الاحتفاظ بطعام يسير ، كدت أهفهم فرحا ، أنها تطلعن على شىء من خصائصها ، قلت إننى مثلها لا أتناول إلا عشاء خفيفا ، كنت أسعى متمسكا ولو شها بسيطا بينى وبينها ، هذا حال لابد أنك مدركه يا أخى ، لكم سررت عندما عرفت أنها مولودة فى نفس شهرى ، وما بين يومى ويومها ستة عشر يوما فقط ، غير أننى تداركت ضاحكا ، فرق الأيام قليل ، ولكن السنوات شاسعة ، عشرين كاملة ، صبحها قريب ، وأصبلى سار ، وداخلى إلى غروب ، رددت تاريخى ، قالت إنها لن تنسى أبدا ، ولما بدأ غيم من وجومى ، شردت لحظة ، تساءلت عما أفكر؟. قلت إننى أفكر فى المكان الذى سيكون فيه كل منا بعد سوات عشر ، قالت . لماذا تشغل نفسك بما لا نثق من وصولنا إليه؟ ثم قالت ، هذه

الطائرة معلقة بين السماء والأرض ، وخطأً أبسط مما تتصور يمكن أن يضع حداً للنهاية ، فلماذا لا نقترن باللحظة ؟ .
 لم أقل لها يا أختي إن اللحظة التي نعيشها سرعان ما تنقضي ، لن نمسك بها أبداً ، دائماً تولى ، تفلت ، فنحن في فوت دائم ، أما جلستنا هذه وقربنا ذاك ، فسيستحيل هذا كله إلى صور نائية ، استرجاعها بالخيالة ، لم أقل لها إنني أرى لحظة افتراق واللقاء متصل ، وهذا جل اغترابي ، وصميم قلقلتي ، لم أقل لها ذلك ، لكنها أدركت . فكت رموز سماوي ، نفذت إلى لب صمتي ..
 قالت مرة أخرى .

« تبدو مهموما »

ثم قالت :

« تبدو متقدما عن سنوات عمرك . »

ثم تساءلت :

« لماذا لاتعرف آيتك ؟ »

قالت إنها منذ ثلاث سنوات ، أجرت عملية جراحية ، رفضت المخدر . أصرت على اجرائها وهي مكتملة الوعي ، الألم له حد لا حد بعده ، الألم يقتل الألم . لكنها أدركت فيما بعد أنها لم تطق الغياب لحظة واحدة عن وقائع الحياة ، قالت إنها في رحلة كهذه تضمن على نفسها بالنوم حتى تسمع وترى .. قلت لها إنني عندما كنت في المعتقل منذ عشرين عاما ، تأملت رفاقي الستة والعشرين . العنبر ضيق . معتم ، والموقع قصي عن المدينة ،

بعضهم يروح ويحيى . عندما جاهرت بخاطرتى ..

« ترى أين سنكون بعد عشر سنين ؟ »

تطلعوا تجاهى صامتين ، مفاجئين ، ثم حاول كل منهم النطق والتخمين ، كانت السنوات العشر تبدو نائية ، ممتدة ، مسافة شاسعة ، خطأ الزمن ، ونقضت عشر فى أثرها مثلها ، وتفرق كل منا إلى جهة . وبعضهم رحل عن دنيانا . ومنهم من نسيته تماما مع أننا قضينا شهورا ستة متوالية معا ، مهددين معا ، نأكل من ماعون واحد ، ولو أنى شئت تفصيل ماجرى لكل منهم لفاض الأمر ، لكملت ، تقلبت المصائر بهم ، وتفرقت السبل ، كانت تصغى إلى باهتمام يا أخى لم يقابلنى احد بمثله . ثم تساءلت عن السبب الذى أدى بى إلى دخول المعتقل ، ثم سجنى ، أفضيت إليها وصرحت بما لم أقله تحت وطأة الإيلام البدنى ، والنفسى ، غير أن ما أفلت منى واستوقفها قولى :

« كنا نحلم بتغيير العالم ! »

تساءلت بجدية :

« ولماذا .. ألا يمكن تغييره حقا ؟ »

تطلعت إليها صامتا ، كنت عند نقاط معينة أحيده . تذكرت صاحبى ، أستاذ الهندسة القديم ، الذى يجلس على مقربة ، تفاؤله الأبدى ، وابتسامته فى أصعب الظروف ، وددت القول إن الأحلام فى البداية كانت شاملة ، ومع السنوات تواضعت حتى أصبح التعلق بالبدنيات حلما . الأمور المفروغ منها . المتفق عليها بين

الكافة ، التى ظننا فى بواكيرنا أنها لن تكون موضوعا للمناقشة ، رغبت فى الإفضاء إليها بهذا كله ، غير وإننى للممت ، طويت واحجمت ، فالأمر يحتاج إلى تفسير ، واننى آتيا به ، غير أننى مرجئ ذلك ، فما أحوجنى أن أعرف عنها .

قالت إنها الابنة الوحيدة ، تدرس المعار منذ سنوات ، لكنها تعمل أيضا بتدريس اللغة الإنجليزية ، تعيش مع زوجها فى بيت من حجرتين ، ترتب أموره ، تدبر شئونه ، تعد الطعام ، أحيانا يشاركها أيام الأجازات ، إنه رقيق ، لكنه شاب ، شاب جدا ، صغير .

لا تفوتنى نبرة صوتها ، مرة أخرى التزم الصمت عند سماع ذلك فالأمر حرج ، تلفت ، والتفاتاتها يا أخى حادة ، مباغثة ، غير أنها لطيفة الوقع ، تلقى عندى دعة ، كما يطيب لبصرى عندئذ المكث عند أفق وجهها الجانبي . له جمال بذاته ، يختلف عن حضور ملامحها إذا تطلعت إليها بالمواجهة ، باغتتنى ، اتجهت صوب يدي ، بسطتها ، حدثت فى خطوط راحتي ، لم تقل شيئا ، وعندما بسطت كفها للمقارنة ، تدفقت تجاهها ، أحطت بيدها حتى سرى إلى نبض أوردتها الخافت وحرارة جسدها ، رفعتها متأنيا ، قبلتها ، بل قل إننى مسستها بشفتي ، غير أننى أقت ، بقيت منحنيا ، بدت شاخصة ، متطلعة . وعندما مست شعر رأسي ، طاردت دقات قلبي بعضها ، كبحت زمامي ، هذا أقصى مايمكن صدوره عنى ، وجمع على مقربة ، بعضهم يسمع

ويرى ، بقى عناق أصابعنا ، وارتدت ملامحها إلى طفولة ، إلى مراحلها الأولى ، فأطلعتنى على ما لم أره . لا أدري متى قالت إنها تسبح مرتين أسبوعيا حتى فى الشتاء ، تمضى للسير فى الغابات الممتدة ، المحيطة بالمدينة ، عند اللحظة معينة ، صعب تحديدها اتصلت الحميمية ، وتوحدت الأسباب ، فصار كالانا يتلقى عن الآخر فى اللحظة عينها ، وفجأة ، انتهت إلى تسرب اللحظات منى ، فبدأ وعيى بالمغادرة ، ووجدى الذى سيعقب الانقضاء . طفت من داخل ألحان عتيقة ، وبقايا أشعار ، طلبت منها أن تصغى ، فهى لن تخاطب حقا إلا بالغناء ، هل تعرف آلة القانون ؟ استفسرت فشرحت موضحا ، رفعت إصبعها ..

« السانطور .. »

قلت إنه يشبهه ، غير أن استخراج أنغامه بالأصابع ، وليس بالطرق . إننى أتقن العزف . لو بصحبتى القانون لهيات مجلسا لى فى هذا الحيز الضيق ، ولا أكلمها إلا عزفا ، استعدت بخيالى مواقع الأوتار . صفرت النغم بغمى ، هكذا صرت العازف والمصدر معا ، حتى أتممت على مسامعها بشرف سماعى رصد أتقنته منذ زمن ، صار سلوكى إذا كوانى وجدى ، أو طحا لى شوق فى الضلوع عاصف ، أصغت دائية منى ، هزت رأسها مرتين ، ومن أعطافها سرى إلى هبوب ، بدأ . أتلمس دربى إلى رأتحتها الختصة ، تضاعف وجدى ، فنوعت واسترسلت ، فلما فرغت ، قالت باشفاق ..

« هذا جميل ، شجى ، لكنه حزين .. »

اعتدلت ، واجهتها بكلى ، فى كل لحظة يقلع من عندى وفد
إليها ليبلغ وينبئ . قلت إن من كان مثلها لا يخاطب إلا شعرا ،
بل لابد من إيجاد لغة تخصها ، لا نخاطب بها إلا هى ، ليس
مثلها مثل . ملت فلاقت جهات وجهها جهاتى ، استدعيت من
دقائق ذاكرتى شعرا ، أنشدتها بعضا مما احتوى حالى ، ما تنبأ به
شعراء عاشوا قبلى بقرون طويلة ، ما عرفوا أنى ملاقيه ، اجتهدت
لنقل المعانى إلى الإنجليزية ، وعندما قالت إنها تذكر بيتا للمتنبى
هفهفت فرحا ، وافانى اشعاع من عينها بمدد فبدد تعبى ، وسقتنى
من منابعا فتقلبت بين حركة وسكون ، أبصرت دقائق غابت
عنى ، أمسكت بما يفصل الظل عن أصله ، وأدركت ما بين
الصلب والترائب ، فاطلعت على التكوين فى أوله ، كنت غير
غائب عن هيئتها الكلية ، والجزئية ، عن هيئة جلستها ،
إطالاتها ، هيئة تحولها من جانب إلى آخر ، هيئة إصغائها ، ابدائها
العجب أو الدهشة ، أو بث إشارة خفية لأخطئها أبدا . كنت يا أخى
كمن ينفض عنه كمونا طال ، أو يقصى البلى فيصير إلى عالم يتوقعه ،
وما لم يخطر على قلبه ، أو عقله ، ولا جاس بخباياه ، ومن أغوارى نما
النداء منى والحض ، أن أقوم ، أن أجنو وأقرب . لكن مازال الأوان
بعيدا . فافهم يا أخى ما حجبته وما لم أقيده لصعوبة تدوينه أو تحويله
إلى لفظ ، لعلك يوما شافعى ..

اندلاع اللحظة

أخى ..

من القائل :

بلينا ، وما تبلى النجوم الطوالع
وتبقى الجبال ، بعدنا والمصانع

من ؟؟

هلا أجبني ، هلا ساعدتني ، دلني وردد القول ، أما أنا فإذا
سنتحت الفرصة فسأنقشه ، سأخطه على واجهة معمار نابع تصميمه
من صميمي ، لما استوى حضورها عندي . وتأهبت روحي لتقلع
من كدوراتها أيقنت أو قل بلورت ماضل سنين جاثما . أقصد تعلق
بالبناء ، ودراسته ، وترميم القديم منه ، وهذا ما أتقنته ، وذاع
عني ، أنه الرغبة الدفينة يا أخى فى عدم الزوال ، فى البقاء . فى
تثبيت اللحظة التى يستحيل إيقاف مروجها . انفلاتها ، فكأنى
أعوقها بالحجر . وإن كنت عاجزا عن تأخير حيني ، أو استعادة ما
أفلت مني . فى غمار نشوتي يا أخى ، يا أعز الأقربين ، على شفا
استيعاب عبرها ، والطائرة تميل صوب الأرض ، ويدانا

متشابكتان ، وكثفانا متماسان ، اندلّع أمامي الخاطر النكد ،
فتجاورنا يوشك على انفصام والمتاح لى ساعات ، ثمانية وأربعون
ثم يقذف بي عبر الفراغات العلا ، أصير إلى جهة . وتبقى هي في
جهة ، فإذا أنا فاعل ؟ ماذا سأجني ؟ هكذا أرى لحظة زوالى ،
ونأبى ، أرى عين افتراقى معى فنح وردد مع القائل :

إذا هي مرت لم تعد ، ووراءها
نظائر ، والأوقات ماض وقادم
فما آب منها بعد ماغاب غائب
ولا يعدم الحين المحدد عادم
قل معه يا أخى :

أمسى الذى مر على قربيه

يعجز أهل الأرض عن رده

هكذا بذلت جهدى لأدارى أساى ، ناديت نفسى ، أن
أتجلد ، هذا ليس إلا الفراق الأصغر ، وبعد ساعات يبدأ الفراق
الأكبر . قامت بعد توقف الطائرة . أخرجت من حقيبتها غطاء
رأس من الفرو ثقيل ، نافر الشعيرات ، له فرادة . فلم أر مثله .
كنت أتأهب لتلقى أول بواده للوجد بعد الصباية ، لا أقدر على
معانقة اللحظة كما أشارت . فكل لحظة إلى بلى صائرة ، ولما
ارتديت معطى ، وتأهبى للملاقة البرد الصقيعى ودعتنى
بابتسامة ، لا بد أن تمضى إلى الهندى وصحبه ، غابت عنهم
طويلا هي المكلفة بمرافقتهم ، أوامأت صاغرا ، أشارت إلى

غد ، حددت السادسة ، أى سأقضى ليلة ونهارا فى مدينة تسمى فيها ، تظلنى الغيوم ونفس السماء ، وأتدثر كما نتدثر هى من شتاتها الكوفى ، لكنها فى مكان ، وأنا فى آخر ، كنت أنوء تحت تعبي الذى بدأ بمجرد ابتعادها عني ، غصت فى مقعدى ، محملا إلى الأشجار المتتابة ، المكلفة بالجليد ، أخضر ، وأبيض ناصع ، نقي لا يشوبه كدر ، إلى كنيسة زاهية ألوانها . الأحمر صريح . الأصفر قوى . الأخضر خصب . أما القباب فسرمدية ، إلى ضباب كثيف يخفى نهايات المباني الضخمة وقممها ، كأنها تنهض من دعائم الأرض الصلبة إلى عنصر الغيب ، بدأ ضوء النهار واهن . والقوم يسرون فى أرديتهم الثقيلة ، يمضون فوق الأرصفة إلى غابات شتى ، أما غايى فوشكة على التبدد ، ساعات وأغادر ، ماتبقى من زمن غير مساعد ، كيف يمكن لصلة أن تنمو . ولوصل أنى يجرى ، إذن .. مايعننى أن أبلغ ما عندى ، ما أراخى أنى كشفت لها قبسا . لوجئت مرة أخرى وهذا صعب ، وعر ، فهل سألقاها هى ، هى ، وهل تبقى اللحظات المتوالية إنسانا على حاله ؟ عند باب الفندق ، فوجئت بها تنزل من العربة ، يميل رأسها قليلا ، تضم شفيتها ، أما الابتسامة فبوجهها كله .. إلى غد .

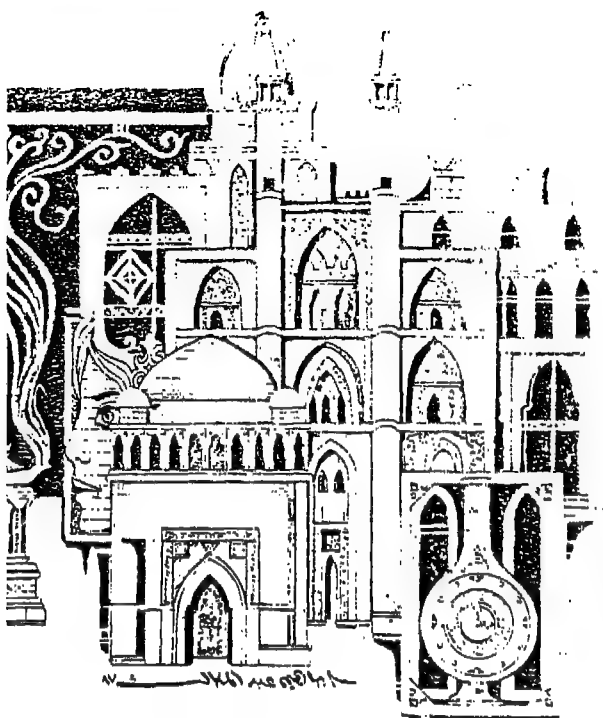
قالت مؤكدة : السادسة ، وددت لو لذت بسموقها ، لو احتमित بوارفها ، لكن .. لم يكن من الوداع المؤقت بد ، ولا من الانفراد مفر ، فإلى من أخلو بعدها ؟ رغبت التوحد بذاتى ،

واستدعاء ما انقضى من وقت ، هكذا هرعت إلى حجرتي ،
 محتميا بهدوئها ، متوضئا بصمتها ، بفراغها ، مستلقيا مستسلما
 للرؤى ، بدءا من القباب السمرقندية ، والمداخل الشاهقة ،
 والحضور البخارى ، وحديقة القصر الصيفى ، إلى مشيها ، إلى
 ظهورها بين شجرتى التوليب ، إلى تقلبها من طور إلى طور فى ليلة
 سهرنا الحميمة ، إلى أثر لا تلاحظه عين يتركه قوامها الباسق فى
 الفراغ الذى تجوز عبره ، كنت أصغى إلى تدفق الحياة فى أوصال
 المدينة المدثرة بالثلوج ، والشجر الذى لم يبيل اخضراره فى
 الصقيع ، وعندما أغمضت عيني ، كانت تغمرنى ولم يكن لى
 عاصم بعد اليوم .

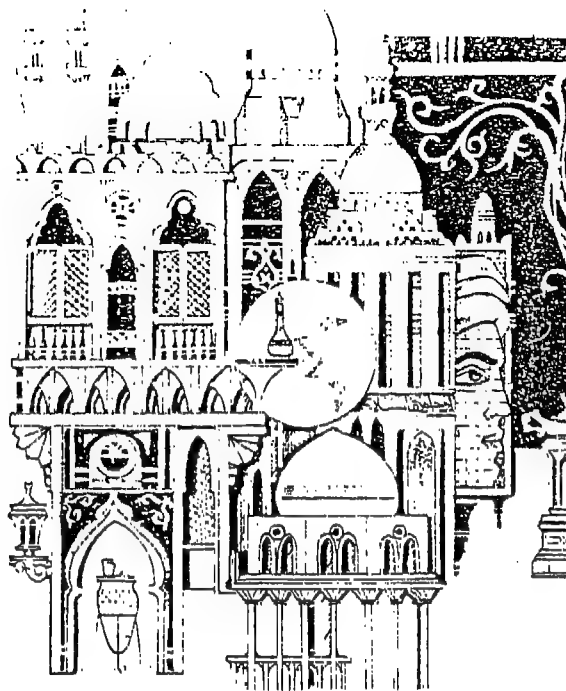
اعلم يا أخى أن ماينتهى أحيانا يبدأ وإن كان غير موجود ،
 وثمة ما نراه بالنظر ، ونلمسه وندركه بالحواس إلا أننا نفتقده ،
 وآخر إذا ولى وغاب عنا صار متمكنا منا ، وصرنا منه فى أمر
 سديد .

هذا عين حالى الآن ، وجوهره ذلك العصر يوم أوبقى من
 آسيا الوسطى ، أغلقت بابى ، أقمت ارضادى ، لم ارفع سماعة
 الهاتف رغم توالى الرنين ، لم أعبا ، هى على مسافة يمكننى أن
 أقطعها مشيا . بعد ليلتين أصير إلى قارة . أعود إلى نظام ، وتبقى
 هى فى نظام آخر ، هذا حالى معها . هذا ماقدر على .

فى هذا العصر الذى أغلقت فيه بابى . لاح خسرى ، أدركت
 أننى أدرب نفسى على فراق يقينى ، واننى استدعى إلى اللحظات



الآتية مكابدة مقبلة ، فعبثا قولها . « عش اللحظة » ، ودعك من آت قد لا تبلغه ، إنما أنا ما كتته ، ما جيلت عليه ، وعندما ثقل الليل تساءلت ، أين هي الآن ؟ في أى مكان تخطو أو تجلس أو تتأمل في عين هذه اللحظة ؟ تماما كما سيكون حالى لآماد طويلة مقبلة ، برغم إعيائى في فورة حجبت عنى الاغفاءة والهجعة ، أى من أصابنى ؟ أنا الحزين ، المبتعد ، كنت أدرب النفس على أن مامرت به اكتمل وتم ، مها جاءت به الساعات الآتية . القادم لا أتوقعه وإن تمنيته ، الحق يا أخى ، أن شكا راودنى في وعداها بالمجىء لترافى ، وأننا سنلتقى مرة أخرى ، على امتداد النهار التالى خرجت انتقلت ، عبرت الشوارع العريضة ، خطوط فوق الثلوج



المزاحة فوق الأرصفة ، لبيت دعوة من صاحب لنا ، كنت في كل لحظة ، عند كل ايماءة أو التفاتة موقناً انها ترقبني من مكان خفي ، انها توشك على منادائي ، وكنت مهيباً لأن ألبى ، حتى إذا ولجت باب التزل الفسيح طالعتني هي ، هي بوجودها ، بحضورها ، بسناها ، كانت بصحبة زميلتين ومن تتطلعها ، من نظراتها صوبى أيقنت أنها لم تقف إلا لانتظاري ، ولم تأت إلا لتراني فشب عندي توق متجدد . ما أن لحتني حتى أنهات حوارها ، أقبلت نحوي ، كانت شاهقة كنصب حي للأنوثة ، ترتدى قيصا من حرير ، يشي بمشد صدرها . وحزاما جلديا عريضا أبرز دقة خصرها الذي أوشك أن يكون رمزا ، عجبت ، إذ كيف يمكن أن يحتوى ؟ كأن فراغا يفصل نصفها العلوى وقدها

السفلى ، وعندما تقدمتنى كانت تسرى ولا تمشى ، أما خطاها
فصهرت ماعداها ، الأبواب المظلة على الممر ، والجدران القائمة .
والبسطة المفروشة ، والمصابيح الواهنة ، وأرقام الغرف ، لم أعد
أبصر إلا هى ، ولا أرى سواها ، وعندما دخلت الغرفة ، وعبرت
إلى المقعد الوثير ، توقفت رانبا ، مدمداً فى قرارى ، كطائرة
تدرج ثم تتوقف لحظات قبل الإقلاع . كانت أشواق طال همودها
تستنفر ، تبرز ، وأحاج لم تحل ، وأسرار تراكمت عبر المسيرة
كنت موشكا على الافضاء بها ، كانت تضوى ، أما وجودها
الحسى فيلغى ماعداه ، انتشت داخل طاقات عتيقة ، وتجددت
منابع جفت ، تهبأت لثئر درى ومرجانى وثقلب صحنى الأولى ،
وتجديد أحوالى البالية ، لما رأيتها متطلعة إلى ، مستفسرة ،
متأهبة ، منتظرة ، لحت البشارة آتية من ضيا عينها ، لم أنث ، لم
أضيع لحظة ، إنما على الفور بدأت الدعوة .

جثوت !

شيعت لثى ، وتقبلى إلى كافة ماطلته من عالمها الحسى ،
بدأت بيديها ، وطف ، ثم عدت ، أنفاسى زفير بلا شهيق ،
حتى إذا لمست جدائلها وتنسمت عبيرها انقلبت شهيقا ولا زفير ،
أثناء قدومنا من آسيا الوسطى تعرفت على حدود أطيافها ، رانحتها
الخاصة ، غير أنى لم أتوغل ، لكنى عندما استنشقت نسائهما ،
هبوبها ، تفتحت فى صدرى طرائق ودروب ومسارب ماظننت
يوما أنها عندى . عانقت رانحتها ، تعلقت بها ، اقتفيتا فى

شعرها ، فى جبينها ، ارتمت تحت فتحى أنفها حتى أتلى من صدرها خبرا ، فى وجنتيها اللتين شعنا ضوءاً خفيفاً حلوا ليس من مكونات هذا العالم . استنشقتها من طيات ثيابها ، من أطراف رداثها ، كنت أبغى تثبيتها داخلى ، ادخار جوهرها ، الامساك بلبها حتى لتخرج من مسامى وأنفاسى ، فإذا نأت بى الديار ، وتقادم العهد بهذه الانتفاضة ، أمكننى استعادة بعض من ديمومتها ، تعلقت يديها ، تهجدت نظراتى صوبها ، انحنيت ملامسا أصابعها بيجيتى ، كنت أخلق طقوسى ، لا سابقة لها ، ولن يكون ، رددت اسمى ، اسمى لا غير ، انتشيت لما أصغيت إلى حروفه المكونة مصاغة بنطقها الغريب ، تطلب منى أن أكف ، أن أتوقف ، لفنى صوتها السارى إلى ، تراجعت برأسى قليلا ، رأيتها فى خلق جديد ، فى كل مرة يا أخى تبدى لى يا أخى ملامح ادركها لأول مرة ، عدت أهوى إليها . تجاهها ، ارتطمت ، حططت ، طوقت عبيرها مرة أخرى . رائحة يا أخى ليس لها مثل ، اعلم يا أخى أنها أم من روائح شتى ، كلها طيبة ، مسكرة ، فمنها طيب منبعث من ثنايا شعرها ، وبقايا عطرها ، واشعاعات وجودها ، وثناياها النائية ، هذا يدق عن الاحاطة ، يستعصى على الوصف ، لو أنى قدرت على الاستعارة ، ولو قبسا ، لاستمر بعثى ونشورى ، لو أعاننى الدهر على الوقوف عندها مرة أخرى لبلغت مانطوت عليه الفكرة ، لجاوزت مسافة القدرة ، لتجدد عطائى بغير حساب .

فاليريا ..

ناديتها همسا ، فجأوبتني بالنظر الحلوم ، رجوتها أن تقف ،
لبت يا أخى لبت ، سألتها أن تخطو ، فلما جاوبتني ، حاولت
معاينة الفضاء الذى اجتازته ، الذى عبرته ، فلما أعيانى الأمر .
قبلت مواقع الخطى ، عندئذ انحنى ، قابلتني بعينيها ، لاقنتني
بنظراتها ، أشرفت ، حنت على حنوا ، أطلت ، وكنت أعى أن
قدرى يكمن فى إحدى هذه الطلات . درجت نحوها ، ساعيا إلى
روح وريحان ، حاولت النفاذ عبر عينيها ، فأقلعت عبر رياض ،
ومغازات ، ولمست قم أشجار نادرة ، وجزت وديانا وبيدا ،
وطفت بمدن لم أطأها ، وفاتتني أرض لن أبلغها إلا بشق
الأنفس ، راغلا فى نعيم القوم . متدثرا بحزن البلاد كلها
وصحاريها ، غير أن وفاضى ارتد خاويا . لم يحط بشيء ، لكن
تفجرى دام ، لم يبلغنى كدد ، حتى تعجبت فيما بعد ، أكان هذا
كله منى ؟ حمت راجيا حول وجنتيها ، لثمتها بشفتي ، عاودت
النظر ، فلما أيقنت من وصول طائرها ، وفضضت بريدتها ،
بركت على شفتيها . وانزلت متاعى وحمل . دفعت لسانى إلى
دفع فمها الوردى ، فكأن شقا منى ارتد جنينا ، كأن الوجود عاد
سيرته الأولى . وعندما تطلعت إلى عينيها ، أيقنت توفيق فى ابلاغ
الرسالة . وأن المجاورة آتية والتلبية على وشك ، لم تكف عن ندائى
باسمى ، مطالبتي أن أهدأ ، لاح فى صوتها اشفاق وحنو . رأيت
عينيها تسكبان حيقا نحوى ، وريحيقها يا أخى لو تدرى عجيب .

أعرف يا أخي مايجول بخاطرك لحظة اطلاعك ، عند ادراكك
سطورى هذه ، ولكن صبرا يا اقرب صاحب ، وإن كنت فى
بعد ، صبرا ، فإنى أبوح بما أخفى وما أبطن ، رإينى لمفسر لك .
ولكن قبل ذلك يجب أن تصغى إلى ما أرغب تفصيله حول
نظراتها تلك ..

نَظَر

افهمنى ولا تتعجل يا أخى ، نظرها إلى المصحوب بترديد
اسمى ، إنما يعنى أموراً شتى ، كانت كلها على مقربة ، وكنت
دانيا ، جاثيا ، أرقبها ، وترقبني ، نظرها يتردد بيني وبينها ، منها
إلى . نظر أضعى أطيافا على ملامحها ، على رونقها ، أكد لي قبولى
عندها ، وللقبول يا أخى إذا تم شأن عظيم ، لكنه قبول مشوب
بحيرة مشروعة . فلم يمض على تكوكبنا بمقادير دينانا إلا قدر يسير ،
ربما حيرة وليس ترددا ، في نظراتها أيضا حث لي وحض ، أن
أقدم ، أن أشرع حتى يصل الأمر إلى مداه ، إلى محطه الأخير ،
أن يتوالج كونانا . لم تردني ، إنما أباحت لي كوكبها الدرى ، حتى
إننى جست يدي خلال الأكس والروابي ، فلا ينقص الأمر إلا
دفعة يسيرة متوقفة على . ولم أقدم ، لم أفعل ، مع إني الطالب
وهي المطلوب ! ستقول ، وفيم الاحجام ؟ فيم التقاعس . هنا
أقول لك ، افهمنى ، وادرك ما عندى ، لم أسع إلى المنهى ، قد
يبدو غريبا هذا ، ستسألني ، ألم ترغبها ؟ أقول لك إن ماشب
عندى حريق ، ومن امسكت النار بشيا به ، كيف يهدأ ؟ لكنى

بقدر ما رغبت ، بقدر ما احجمت ، فانصهار كينونتنا لن يقدر له الدوام . ولم اكن أسعى إلى اتحاد عابر ، فى ظرفى ذاك . لو نلتها . ونالتنى ، ربما أنتهى حومى ، وربما وضع الحد لاستمرار اقترابها منى . لم أقصد الوصول إلى المحط الأخير . إلى لحظة همود حتى وإن جاءت بعد ارتواء ، لم تكن بالنسبة لى نقطة عبور ، ولا جسرا مؤديا ، وعندما تعانقنا مال كل منا على الآخر يعتصم به من لحظات آتية ستجرف ما نحن فيه ، لا يمكن ردها ، وكنت أحتمى منها لحظة مرورها بالعناق ، بالاحاطة بها ، مدركا أن هذا لن يستمر لأن الظرف معاكس ، وهذا رغما عنى ، وعنهما ، أما إذا مددت الخيط إلى منتهاه . فلن يتبقى شيء ، سبب ثان يا أخى كنت حريصا حتى لا يملكها الظن أن هذا ماسعيت إليه لاغير ، ولكن ما أردت توصيله وعورة هيامى ، وشموليته ، وشدة توقى ، هل فهمت عنى يا أخى ؟ لاتفوتنى الإشارة إلى حدة وعيى بقصر المدة ، ولم أكن قادرا على التنبؤ بما سيصير إليه حالى لو صار الأمر إلى غايته ، ربما ألقيت بكافة المحظورات جانبا . ربما اختل دستورى ، وآثرت الهيام على وجهى إلى أبدى قربها ، أهجر ديارى ، واخترق حاجز العقل ، لك أن تتصور يا أخى ما صرت إليه كنت أدور حولها ، أنا الجزىء وهى النواة ، وما من اتحاد ، كأنى من طال بحثه عن نبع الحياة ، حتى إذا بلغه ، لم يدر أنه بغيته فتجاوزه دون أن يحسو منه ، وبعد الفوت أدرك خسارانه المبين . كأنى طائر الرخ الذى علق له السندباد قطعة اللحم فى

طرف الغصا مدها أمامه ، موجها إياها إلى الجهة التي يرغب ،
والرخ يطير لعله مدركها ، لعله مطعمها . ولكن عبثا التناول .
لعلّي وفقت في إبلاغك كنه الأمر .

اعلم يا أخى أن النظر تهادى بيننا . وعند لحظة بعينها ذوت
حيرتها ، أيقنت باطلاعها على مكنونى ، هكذا احتوت رأسى بين
يديها ، ملت حتى آويت إلى صدرها . آنست منه مأوى ، راحت
تنخلل شعرى بأصابعها ، رددت .. « رمادى .. رمادى .. »

أوشكت على رؤية ملائحى فى نغم صوتها ، مافى رأسى من
شيب . كنت أبسط تاريخى كافة أمامها . ترفع رأسى . تحديق
إلى ..

« حزين .. لماذا هذا الحزن كله ؟

ثم قالت :

« لم تبق إلا ساعات وترحل .. »

ثم قالت :

« سأراك غدا . سأبقى معك حتى الرحيل .. »

ثم قالت .

« فى الساعة الثانية عشر ، سأكون فى مبنى الاتحاد .. »

قالت ونسيمها يسرى فى ثناياى ، مثيرا شوقا جامحا غير ذى

عوج ..

« نلتقى هناك .. »

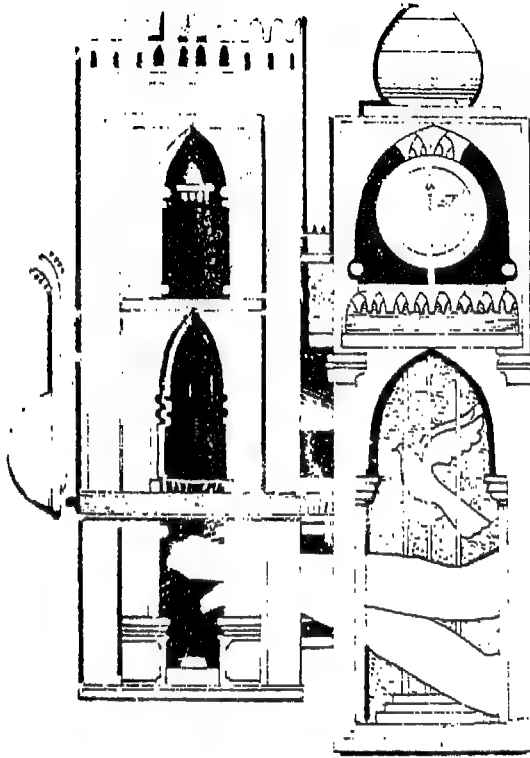
تراجعت قليلا . رأيته حانية ، مطلة ، مشرفة على ، محيطه

بي ، لم تلفظ إلا همسا . لا يمكنني تفصيل ماقلته ، أو ماقالته
لي ، كانت تميل علىّ ، تزققي الألفاظ ، تطعمني مسك الحرف
كما يهدي طائر الحمام الحب إلى فرخه الصغير ، على مهل كنت
أتحول إلى عناصرى الأولى ، بينما وجدى يبدأ قبل بدء البعاد .
فهل أتاك ما كان منه عندى منذ أبد أبديد ؟



الوجد

.. اعلم يا أنحى - صبرك الله وخفف عنك ما يسبب لك بأساً أو
ضرراً - أن الفراق حق ، والبين حق ، وأن التناثى حق . كل
مجتمع مصيره إلى افتراق ، وإلا لما كان اجتماع أصلاً . فلم أرها بين



شجرتى التوليب إلا لأنى فارقت ديارى وارتحلت ، لكن ، فرق
 بين ادراك ذلك بالعقل ، وأن تعيشه ، فرق بين وعي به .
 واكتوائى ، اعلم يا صاحبي أن الأصل فى الأشياء التفرقة .. هكذا
 بدأ وجدى واشتد ، وأوعره ما جاء بعد تباعد ديار ، وانعدام يقين
 من أوبة أخرى ، هذا موجد . الوجد يا أخى شدة الشوق ، ولا
 يكون الشوق إلا إلى غائب ، وطول الوحشة يضاعف الحسرات ،

هذا ما صرت إليه بعد حين ، عندما عدت إلى ديارى أغمضت
عيني في ليلتي الأولى ، أشبه بالطافي ، المحوم في فضاءات رحبة
وما من شيء يشده ، كان فرحي بادراكها . والوصول إليها .
وفهمها عني ، مازال ممتدا . غضا ، فكأنى سأصبحو فألقاها
بجوارى ، اخرج من بيتي فكأنى ذاهب إلى لقائها ، أينما وليت
وجهي أراها مشرفة على ، مرة تلوح هيئتها كما شهدت في آخر
لحظة ، وهي تقف أمام الفندق . وفي ملاحها شجي ، ترتدى .
معطفها الأسود ، تدس يديها في جيبه ، حاسرة الشعر ، غير
عابثة بالصقيع ، بعد استقرارى في العربة ، خطر لى أن أغادرها ،
أن أخطو ثلاث أو أربع خطوات . أمد يدي فألمسها ، أو
أصافحها مرة أخرى ، أستوثق من كينونتها المادية ، غير أن الرحيل
بدأ ، فلا مفر ، كنت كالظامئ المقيد المرغم ييسط نظره إلى الماء
وما هو ببالغ ، وقفتها هذه تعتقت في خلاياي ، فلکم استعدتها ،
وفي كل آونة أرى ما لم اطلع عليه من قبل ، وعندما وصلت العربة
إلى المنحنى ، حيث قام أول حاجز مادی حال بين بصرى وبينها ،
ونخطر لى أن استأذن مرافقى ، أن أنثنى لحظات ، غير أن ميناء
الاقلاع بعيد ، والوقت يمضى بى إلى اتجاه آخر ، لا يؤدى إليها
أبدا ، أراها الآن يا أخى لحظة تدويني هذا ، فاكشف في وقفها
تلك حزنا أعمق ، وميل قوامها إلى الأمام ، وتهدل كتفها ، لحت
في صالة الفندق ذوارف مطلة من عينيها فتحاشيت التطلع إليها .
هل تفهم عني إذا صارحتك ، بودى انقضاء هذه اللحظات

الختامية؟ كان لابد من توقيع أوراق، وتسديد رسوم، وتوديع معارف، التأكد من وجود أوراق السفر. بينما تتحرك هى بمقربة. تكف إذا توقفت، وتمشى إذا مشيت، لاتبادل الحوار إلا عرضا، كنت أؤدى هذا كله وكأن شخصا غيى انبعث من داخل لينوب عنى، ليبتسم هذا. ويؤكد ضرورة تبادل الرسائل لذلك، كان وجودى قربها على مرئى منها فى هذه اللحظات الختامية كعدمه، كذا وجودها بالنسبة لى، كلانا فى مواجهة الآخر. لكن الانقطاع مقرر، وعندما يصبح التناى مفروغا منه، لاراد له، يتنى الوجود وتنعدم الكينونة وإن قامت، جربت هذا يا أخى عندما وقفت يوما أمام جثمان أمى، كانت متمددة، مغمضة العينين، آوت إلى أبد، ألسها، لكنها لم تعد من هذا العالم، أميل لألثها. لكنها بعد ساعة لن يكون بوسعى أن أنادىها فتجيبنى، وجودها غير موجود. وهذا شبيه بحالى مع تلك البنية فى لحظتنا الأخيرة، علما أن فراق الحى اصعب من فراق الميت، لأن الأمل يندثر بعد حين أما الحى فيظل التعلق به قائما، أنها تحضرنى يا أخى تتمثل فى. أرى تلك اللحظة الوداعية. هذا الصرح من الحيوية أدركه ميل، آيل بسبى، وجهها الجميل يضاعف الأسينة، خاصة والليل مكتمل، وياقة الفراء توطر عنقها الجميل، لم أدر أنها ستلازمنى مددا أضعاف ماقضيته معها من زمن حسى، فلم يكن ماقضيته معا إلا لحظات معدودات. ولم يكن تلاقينا إلا كتاس الشهب المارقة فى اتجاهات متضادة،

غير أن كلا منها أودع الآخر لها ، وجمرا ، هكذا يا أخى نمت
عندى حالة الفرح الغريب هذه فى الأيام الأولى لعودتى ، كنت
أصحو مبتهجا مبتلعا بهجة إلى الآتى ، غير ذى صدود كأمرى
قبل لقائى بها ، أعى نأيتها عنى ، لكن لا يفرع قلبى . ولا نهزع
روحى . إنما أقدم نشيطا ، راغبا فى رؤية صبحى ، والمضى إلى
الأمكنة التى أفضل البقاء فيها منفردا ، أقلب حاجاتى التى
صحبتنى فى سفرى مبتهجا ، قبل مفارقتنا الغرفة رجوتها أن تمسك
حقيبة سفرى ، وحقيبة يدى . وحلتى التى أرتديها . والأخرى التى
قالت إنها تفضلها ، وكتبى . ودفتر ملاحظاتى . وغطاء رأسى ،
وجواز سفرى ، حتى ينتسب كل شىء يخصنى إليها . وحتى الأمس
مواضع مرت عليها أناملها ، وأنفاسها لعلى مدرك أثرا . لعلى أرى
ما لا يمكن رؤيته بالنظر ، دام انطلاقى هذا أياما معدودات ،
صعب على إحصاؤها بدقة ، لكننى بقيت خلالها غير متبته إلى
المسافات القصية ، لا أدرى ماسيصير إليه نبئى بعد حين .

إذا لاقيت صاحباً أود لو حدثته عنها ، أو أدير الحديث إلى
وجهة تمكنى من إيراد تفاصيل متعلقة بها ، غير إنى دائماً أقف
على شفا البوح ، فما لزمته بعد هذا العمر أن أكنم واحجب ،
كانت تملأ على جبهاتى . أتوقعها مقبلة نحوى . نفتح باب مكنتى ،
تلج فراغه دافقة الحيوية إلى روحى فأشبه بعد اشعالها الجذوة ،
بل أتمهل أحيانا كأنها نادتنى وفى الزحام يصير وجودها قويا . حتى
أوشك على تلمس جسدها الضاح قرينى . كأنها تسعى حولى .

كأنها توشك أن تدنو منى ، كأنها مقبلة ، مبتسمة ، مادة اليد ،
 مصافحة إياى ، كأن لقائى بها مفروغ منه .
 صرت أتوقعها كما بدت ظهيرة ذلك اليوم فى حديقة الاتحاد ،
 أخبرتك يا أخى أنها أفضت إلىَّ ببقائها يوم رحبلى ، حددت مقر
 اتحاد الفنانين مكانا ، أما الوقت فدار حوله همى ، طوال الليل
 المتبقى بعد انصرافها ، رحت أستعيد ماتبقى منها . ما أودعته فراغ
 سكنى المؤقت ، غرفة الفندق ، فى مطلع النهار الجديد طوقنى
 شوق ، مسنى إليها أول حنين ، هرعت إلى المكان الذى لزمته
 معظم الوقت ، قبلته ، إلى موضع جثونا فلثمته ، كنت أتعجل
 مرور الزمن واستبطشه ، فما خلا منها ارغب انقضاءه . وما
 اكتمل بها وددت ديمومته ، ولكن يا أخى هل يدوم شىء أبدا ؟
 خرجت إلى فضاءات المدينة الفسيحة ، المجللة بالجليد ، طفت
 متاجر البضائع الأجنبية باحثا عن عطر تفضله . وعندما لمحت
 علامته تناولته ، ضممت . قام بينى وبين القارورة الصغيرة أمر
 خاص . مررت قبل الموعد ، المحدد بمدخل المبنى . طفت الشوارع
 المحيطة صقيع وعر ، وبرد لم أعتده ، لكن ماخفف عنى أن كل
 خطوة تقربنى إليها ، كنت أمشى محاذرا الجليد فوق الرصيف ،
 متدثرا بمعطى ، مسدلا غطاء رأسى . جزت البنايات الهائلة ،
 والمداخل ، والنواصى المؤدية ، حتى اجتزت الباب الخارجى
 الفسيح إلى الممر الدائرى الذى يتخلل الحديقة ، بالضبط الثانية
 عشرة ، المقاعد مثقلة بأكوام من ثلج هش ، تحسبه بالنظر صلدا

حتى إذا لمستهُ أو امسكت حفنة منه تدرى ، تماماً كغياب وعيك
بعض اللحظات ، أثارت نصاعته عندى بهجة غامضة . تذكرت
صاحبة لى تقيم فى مدينة نائية ، قالت لى يوماً إنها تتفاءل بنزول
الثلج ، وقفت متطلعا إليه ، منصتا ، الشتاء يصفى بعدا غامضا
على الموجودات ، لعلى ألتقط إيقاع مرور الوقت ، الزمن ، أو
ذلك الحنى المبين الذى يجمع ويفرق ، غير أن ضجيج المدينة
المندغم . المدوم ، حجب وأبهم .

سمعت خطاها . صوتها ينادىنى دهشا ، مبهجا ، التفت
فرحا ، فوجئت ، لا ترتدى إلا قيصا من صوف خفيف ،
اجتازت الحديقة نحوى حاسرة بدون غطاء رأس . بدون معطف ،
كيف تخرج هكذا . أشارت إلى ساعتها ..

« الثانية عشرة تماما .. »

اشرقت ، اجبت ..

« طبعا »

مبتسمة ، متلهة ، ضاجة بالفورة الحيوية ، تصور يا أخى لو
امتد الأمر عدة من أيام أخر ، تصور توالى ظهورها ، تنوع
إبداعها وطلاتها وجميل لفظها المقتصد . فى كل مرة تجدد ،
وتهلل مغاير ، وتعاقب تعبيرات على الملامح التى أخذتنى حتى عن
نفسى ، غير أن لهذا اللقاء الأخير معزة ومزلة ، عند تواجدها
اختلف الوضع عن المرات المنقضية ، فبعد أن دنا كل من الآخر
الليلة الماضية ، بعد تمايس كونها بعالمى ، صار عندها منى ،

وعندى منها ، امتد وقت ، ومودة ، وصلة ، أما قربها منى فله خصوصية اخص ، ضاج ، فواح ، مشع تجاهى ، فكأنى بالنظر ألس جسدها ، أتوسده ، هذه الوقفة ، تلك الطلة . قربها . ترحيب عينيها ، علق بى هذا كله ، صار مددى فى قفري ، وزادى فى بيدائى ، وخلال أيامى التى تمكن فيها الفرح المريب منى طال توقعى لظهورها ، كما بدت فجأة فى هذه الحديقة ، لم يكن وعيى بفقدائها قد بدأ بعد وهذا حال خبرته ، لكن فى ظروف مغايرة مختلفة ، وانى لقااص عليك نبأ منها لعلك مدركى . اعلم أنه بعد رحيل أمى . ورحيل أبى ، انقضت أيام ثقال لا يمكننى إحصاؤها الآن ، كنت أهيم خلالها فى الطرقات غير واع بالفقد ، غير مصدق ، متوقعا ظهورهما عند أى منعطف ، أو طرق أبى بأبى كما كان يفعل . أو دخولى صالة البيت فأجدها فى انتظارى ، شيئا فشيئا بدأت أنتبه للفقد المحتم ، وإن ماكان لن يكون ، لن أصغى إلى الصوت الذى ألفتة ، ولن ألامس اليد التى عرفت ، انتبه يأخى إلى ماقلته لك ، انقطاع الرجاء من لقاء الحى اصعب ، فمن رحل إلى أبد يبلغ المدى بأهله وصحبه حدا يؤوسا ، فما من امكانية قط ، وهكذا يفضى اليأس إلى النسيان ، لذا يقولون إن كل شىء يولد صغيرا ، عدا الحزن على الميت فإنه يبدأ كبيرا ثم يضممر ، أما فراق الحى فهذا هو البين عنه . والبأساء والضبر ، خاصة إذا تباعدت الديار ، وشط المزار ، وأدرك الوهن أملا فى لقاء ، اعلم يا أخى أن الأيام الأولى التى حدثتك عنها شبيهة

بالخروج من دفء الغرفة إلى الصقيع ، جربت هذا . بعد الخروج تنقضى لحظات لا يصلك فيها شدة البرد . ثم شيئا فشيئا يسرى ، حتى يلفك فترتجف ، انها أشبه باللحظات الفاصلة بين وقوع الصدمة والشعور بالألم الجسدي ، في هدأة انفرادي ذلك العصر . ألقيت بذاتي في عينيها الواسعتين ، الفسيحتين ، فجأة غزاني خوف غريب ، متى سأراها ، وما الحال الذي سألقاها عليه ، قلت :

«أخشى الموت ، وإلا أراك ..»

بادرتني على الفور ، رنتها عاتبة ، شاكية قولي ..

« لكنك يجب أن ترجع إلي ..»

اعلم يا أخني أن الوجد يبدأ مع اكتمال الرحيل ، وتباعد الديار وانعدام اليقين من الأوبة ، هذا عين الخطب الموجه ، شيئا فشيئا بدأ فرحي يذوى ويبدأ وعيي ببعدها ، بالمفاظات . بما يفصلني عنها من مواضع وبراري وقفار وفلوات وخراب . بحار ، وتلال ، ارتفاع وانخفاض . ومراع ومدن . وهذه مواضع ستبدل يوما . فالبحار ستصير جبالا والبحار ستصبح رمالا ، فلا شيء يبق ، إذن .. فما أبعد التلاقي ، وطول المسافات ، واختلاف النظم ، وريبة العسس فما أظلم وما أظلم ، تطلع شمسي قبل شروق شمسها ، ويسدل ليلى قبل ليلها ، فلا الزمان يوحدنا ، ولا المكان يجمعنا . فماذا بوسعي ان أفعل ؟ حتى إذا انقضت شهور ، وعادت الفرصة ، وساعد الوقت ، فهل سألقاها ؟ ربما تكون على

سفر ، أو فى شغل عنى ، أو عرض لها عارض أحالنى إلى صدفة
جد عارضة فى حياتها المتدفقة . وإذا دنوت وقت واقفا أمامها ،
هل سألتى من عرفتها ؟.

كنت ألح لك دائما أن الإنسان فى الثلاثين غيره فى
الأربعين ، واننى فى الخمسين مغاير لما كنته فى العشرين . تذوى
أمر وتستجد أشياء لم تتوقعها من قبل ، لم تدر بخلدنا يوما ،
تنزوى أصول لم نتوقع قط تلاشيها . اذكر قولك إن الجوهر لا
يتغير . صحيح يا أخى ، لكن هل تظن أن اللب قصى ،
مستعص على التغير أقول إن الأمر غير يقينى ، الآن أطيل النظر
إلى مافات ، ما انقضى أطول مما تبقى ، أما هى فتسعى بعيدا
عنى ، ويبدو ماينتظرها بعيد المدى ..

لما اكتمل وعيى يا أخى بالبعاد صرت إلى شعجى ، إلى أسى ،
هكذا ناء الوجد ، صرت أسعى إلى كافة مايمت إليها ، قرب أو
بعد ، حتى الإذاعة التى تتخذ من مدينتها مقرا ، اعتدت الاصغاء
إليها ، احاول جاهدا تمثل المذيع ، رسم ملامحه من صوته ، ربما
يسكن على مقربة منها ، بإمكانه لو أنه يعرفها السعى إليها ، أن
يلبغها بعد دقائق . صرت أتفحص الخرائط ، أضع العلامات ،
بخارى ، سمرقند ، طشقند .. موسكو ، تحركنا من هنا إلى هنا ،
اكتمل ظهورها فى مدينة . وتعارفنا فى بخارى ، وشرعنا فى
سمرقند ، وفى العاصمة الكبيرة جرى التلاقى والتفرق . أما الحنين
والتذكر فله قاهرته الحانية على ، هكذا .. كان اللقاء فى قارة ،

والفراق في أخرى ، والوجد في ثالثة ، صرت أقعد في جمع
يا صاحبي فأكاد اسمع سعيها البعيد . توشك أن تقترّب مني حتى
أتأهب لتنسم عيبرها المفقود ، المتفرد ، أدرك بغتة الاستحالة ،
فأفارق الصحبة . ابتعد عمن اعرف . أستقبل وحشة الطرقات .
أمضي بلا هدف ، بلا مقصد ، حولي حشد ، لكني فرد ،
متوحد ، أحيانا أمضي إلى صاحبي ، من رافقتي رحلتي ، من
رآها ، من حادّثها . واطلع على بعض مما عندي ، حتى أنه صار
إذ نلتقي يسألني ضاحكا ..

« .. أنت هنا أو هناك .. »

فأجيبه مبتسما ..

« في الأمر وحشة .. »

بعد نزوعي إلى شيوع أمرى ، إلى الانقضاء بما عندي لكل
أحد ارتدّدت إلى ، أما حضورها عندي فصار مختلفا عما جرى في
الأيام التالية لعودتي ، أحيانا تبدو فجأة ، ليس أمامي فقط ،
وإنما حولي ، اصغى إلى تحفظها على تبادلنا الخطابات ، استعيد
ملاحا حذرهما البادي ، فأنا عند قومها اجنبي ، وما أكثر الريب ،
غير أني أثر انقضاء أيام الفرح . وبدء طرقات الوجد ، لم أبال ،
رحت أشيع الرسائل . مرة في الصباح ، والثانية عند الظهر ،
والثالثة ليلا ، أكثر من شهر كامل ، أحيانا لا اخط إلا التحية ،
وكأنني استعويض عن نطقي بكلماتي المكتوبة ..

ولم اتلق ردا ، لم تصلني اشارة ..

مع بدء الشهر الثاني ولأسابيع عديدة لم اتخلف يوما عن تشييع رسالة عند مطلع كل يوم ..

ولم تصلني مجاوبة ، لم ترد رسائل إلى ..

كنت كراكب سفينة ، تبحر مبتعدة عن المرفأ ، والميناء يتضاءل تغيب ملامحه ، تختلط مبانيه ، تصبح تضاريسه مجرد خطوط لاتنم عما تحتويه من حيوات ومصائر. حتى إذا بلغت المسافة حدا تداخل البحر في البر. وطغت السيولة والديمومة ، فيبدو ماكان وهما .. والبحر يطفئ ، ليشمل حتى الأفق ..

دام حالى مدى ، ولا إشارة ، ولا ايماءة خط حتى ، مع توالى المسافات انتهى بي الحال إلى المناسبات ، فمن ذلك رأس السنة ، وقدم الربيع ، ويوم مجيئها إلى العالم ، ويوم اكتمال ظهورها بين شجرتى التوليب ، أحدق إلى العنوان ، هذا خطها هى ، الشارع ، الرقم ، كتبه عندما كنا نجوز الفضاء عائدين من آسيا ، إذن .. العنوان حقيقى ، واليد التى خطته حقيقية ، والوجه الذى دنا وابتسم عند تقديم الورق له كينونته ، ألم اقترب ؟ ألم أحدق وألامس ؟ عندئذ يتوهج داخلى يا أخى فأوشك على استعادتها عندما احتويتها عندما طويتها بين ذراعى ، عندما اقلعت صوب عينيها . صوب شفتيها ، عندما تموج جسدها وتحرك متبعا تناغمه الداخلى لينبئ أنه طوعى ، وأنه ملبٍ إن أردت. إن دفعت الأمر قليلا ، إن خطوت خطوة يسيرة ، غير أن الوقت المحدود ، والفرصة غير المساعدة ، والرحيل الوشيك ، وماسيطر

على فكرى ويقىنى ، أن بقاء هذا الوله فى عدم اكتماله ، هل
أخطأت ؟ لا أدرى .. ولكن الشك يعاودنى مع ضياع المدة ،
امضى إلى ماقدمته إلى قبل أن يتخذ كل منا طريقه ، الساعة
العتيقة ذات الجرس الخزفى ، استعيد قولها إذا قرعت الجرس
يوما ، فسيصلنى صدها أينما كنت . أمسك الساعة أخرج إلى
صحراء الصمت الليلي . اهزها ، اصغى إلى الرنين المعدنى إذ
يتلاشى ، أطيل اصغائى .. لكن ، مامن نبأ !

عرفت الانصراف المفاجئ وأنا فى جمع ، إذ يتدبب وعى
فجأة . إنها نائية ، قصية ، وإن اللقاء صعب ، عندئذ أدخل فى
هجاج لما يملكنى من يأس اللقيا ، ومن انعدام إمكانية مشاهدتها
مقبلة علىّ ، أو حانية بنظراتها ، أو مجاورة بحركاتها النغمية . حيث
يتخذ جسدها المطواع ، الفاره ، أوضاعا عجبا ، أو سكون
ملاحظها عندما طلبت أن نقضى الدقائق الأخيرة صامتين ، يتطلع
كل منا إلى الآخر ، يتزود كل صاحب من صاحبه ، ثم أهدتنى
ثلاث زهرات ، هكذا .. أستعيد تحديقها إلىّ ، وأحيانا أوشك
على الاصغاء إلى سعى عيبرها نحوى ، هذا أصعب الوجد
ياصاحبى ، فلکم أمضيت الوقت مستنشقا نسائمها . من ثيابها ،
من راحة يدها ، من خصلات رأسها أتأهب لفودها علىّ . أقف
صامتا ، متطلعا إلى الجهة التى أتوقع منها القدوم والورود . وإذا
يكتمل وعيى بأننى ماكنت أسعى للاندماج إلا بالصورة ، أفر من
مقعدى راغبا فى اختراق اللاممكن ، وإذا أنوء أرتد خائبا ،

مستعيدا نظراتها . حنوها . مستفسرا . متسائلا ، هل ماجرى كان حقيقة أو وهما ، وهذا ما أمر به الآن ، هذا دافعى لمخاطبتك أنت دون غيرك ، فلم يعد لى من الأقربين ألا أنت وإن بعدت المسافة ، وطال زمن غربتنا عن بعضنا ، فما وصفته ، وما سرده ، وما رويته ، لم يكن إلا محاولة أيضا للملمة ماتبعثر ، لاسترجاع ماغلب عليه الوهم واللايقينية . وإن ماكان حق . وليس برقاً لمع ، أو شهاباً مرق ، وإلا فأى وجد هذا يبحر داخلى ؟ ويبقى نائياً عن الخلدجان والمرافئ الآمنة ، أحيانا أنتظر مرات هبوبها على وأتمنى أن تحل بى ، فينزل على قلبى برداً وسلاماً ، أشبع بغيرامتلاء ، كما حدث ذلك الشيخ الجليل ، عن حاله ، قبل عدة قرون زمنية ، إذ قال ما نصه ياأخى :

« وقد بلغ بى قوة الخيال أن كان حبى يحسد لى محبوبى من خارج لعينى ، فلا أقدر انظر إليه . ويخاطبنى واصغى إليه وافهم عنه ، ولقد تركنى أياماً لا اسيع طعماً ، كلما قدمت لى المائدة يقف على حرفها وينظر إلىّ ، ويقول لى بلسان اسمعه بأذنى .
« تأكل وأنت تشاهدنى .. »

فأمتنع عن الطعام . ولا أجد جوعاً ، وامتلى منه حتى سمئت وعبت من نظرى إليه ، فقام لى مقام الغذاء ، وكان أصحابى وأهل بيتى يتعجبون من سمنى مع عدم الغذاء لأنى كنت أبقي الأيام الكثيرة لا أذوق ذواقاً ، ولا أجد جوعاً ولا عطشاً .. هذا مادونه الشيخ الجليل ، وليتنى مثله ، فنعت بما كان عليه ، لذلك أولى

وجهي صوب اللاجئة ، متوقعا اكتمالها أمامي ، كما كانت عليه في
اللحظات الدانية من افتراقنا ، ورأسي بين راحتها ، عندما قلت
لها ..

« أخشى الموت ، ولا أراك ..
فالقت في سمعي قولاً جميلاً ، حزينا .
« لكنك يجب أن ترجع إليّ .. »
ولهذا أسعى يا أخي ، بلغك الله ما أتمنى ، .. »

جمال الغيطاني

مارس - يوليو ١٩٨٧

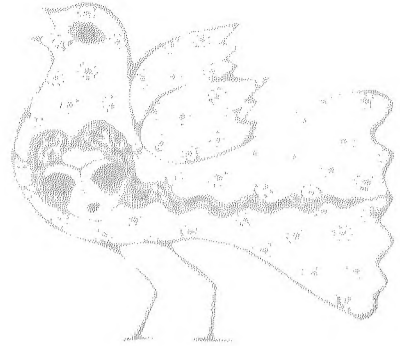
الفهرس

٥	مقدمة
٧	ديباجة الظهور
٢١	مساق المسلسل
٢٦	تفصيل
٣٠	حكاية دالة
٣٢	رجعى إلى ما انقطع
٣٤	إفصاح
٤٦	قربى
٦٣	ارتقاء الكتيب
٩٣	توق
١٠٥	مواقع الشهب
١١٥	اندلاع اللحظة
١٢٥	نظر
١٢٩	الوَجْد

رقم الايداع ١٩٨٩/٨٦٩٧
الترقيم الدولى . ٨ - ٣٤٨ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق

العتاق: ١٦ شارع جواد حسى - هاتف ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤
بيروت: ص ١ ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣



رسالة الصبا والوجد

عنوان أختاره جمال الغيطاني لعمله
الفني ليدل منذ ما قبل الكلمة الأولى على
عمق ارتباطه بتراث أمته ومنهجها في
القصّ وطريقتها في التعبير عن مكنون
تجاربها ، وبخاصة التجارب الوجدانية
الصادرة عن خبرة شخصية مباشرة .
إن هذه الإشارة الدالة تكاد تميز
الغيطاني بين أدباء جيله .

د . محمد حسن عبد الله

هكذا تطلع ليلى جديدة من سمرقند
لتنسى غياهب الروح وتشرف على
عزلتها كشمس مفاجئة . ليست « فاليريا »
سوى وجه آخر من وجوه « ليلى » ،
وليس الراوى سوى تجلٍ من تجليات
« قيس » في بحثه الدائم عن الاتحاد
بالمعشوق إلى حد الانصهار الكامل .
رسالة في الصبا والوجد هي نوع
من مراثاة شعرية للبشر والعواطف
والحضارات ليس فيها من ديمومة لغير
الزمن .

شوقي بزيع/لبنان

© دار الشروق —

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى — هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ — ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص . ب : ٨١٦٤ — هاتف : ٣١٥٨٥٩ — ٨١٧٧٦٥ — ٨١٧٢١٣